كرمكول

والحصانة القروية

رواية

أمير تاج السر



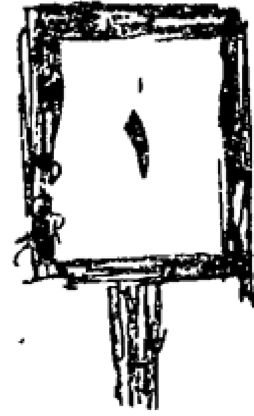
الغلاف والإخراج الفنى : ممدوح شهبه

وبعد اليوم أيام .. طوال ..

. . . . . .



صباح أحد الأيام فى القرية ..



أستغفر الله العظيم ، أستغفر الله العظيم ، اللهم تب علينا جميعاً ، قل آمين يادوكارا .

— آمين .

تناول الإمام عبد الغفار ودكروعى مسبحته الصندل ، لوح بها فى وجه الصباح قليلا ، ثم داعب حباتها ، وتركها تتساقط تلقائياً بين أصابعه ، وأمسك لحيته بيده اليسرى ، حاول تثبيتها جيداً على فكه ، استعصت عليه تركها ونزح بوجهه بعيداً .

كان نباتاً أصيلا فى القرية ، ومن أهلها الذين غرسوا

أوتادها وشهدوا عوراتها ، فأججوها تارة ، وأطفأوها تارة أخرى . كان والده صائداً مغموراً للتماسيح ، عارك النهر عمقاً وضحالة ، وضرب فيه شمالا وجنوباً ، ورحل حتى حدود الرياطاب ، والمناصير وجزيرة لبب . فلم يصطد سوى تمساح عاطل : جاءه طواعية واختياراً ، فظل يتعطر بمسكه ، ويلبس جلده ، يطوف به القرى ، يتلقى التهانى ، وتعمر له الموائد حتى مات. رشحت القرية ودكروعى إماماً للمسجد ، ورشحه الليل فحلا طافح الرغبة ، يروض ساعاته ، ولا يهدأ . كان نحيلا أملس الوجه ، تنبت لحيته أسفل ذقنه فى وقت الصلاة ، وتميل إلى الجانب أو تختفى تماماً ، عندما تطفح رغبته وتزاحمها المكان . تراه من بعيد ، فترى العمامة ، والجلباب ، ورغبة أو لحية تملأهما ، وتكلمه ، فتكلم أسناناً متنوعة ، بعضها عظمى ، وبعضها صخرى ، وبعضها جيرى ، كأنها قوم متباينو الظروف ، يجتمعون صدفة .

كان يقول قبل كل صلاة ، ويؤكد بعدها ...

نساؤكم حرث لكم ، وبعد العشاء ، لاحرج .

امرأته (النعمة بنت السيد) تراكم عليها الخطاب ، كما يتراكم الطمى على ماء النيل عند الفيضان . أشهرت جمالا عاصفاً ، وكانت عيناها ، كبيرتين تشعان نداءاً مجنوناً حين تضحك بهما ، فبهت الناس ، وأعملوا خطوات تلم ، وتركض إلى بيت والدها . .

كان ودكروعى أخفهم وزناً ، وأكثرهم بعداً عن العين ، يحتل هامشها فقط حين تتسع وتضحك . وكان يسير فى القرية ، فتلهو به ريح (السموم) ويعلق الجراد بجلبابه ، وتتبعه الكلاب أينما ذهب . وحين استوى فى مجلس والدها ، صفق الرجل بيديه طويلا ، ثم قام وتوضأ ، وصلى ركعتين أطالهما ، ثم صلى ركعتين أخريين ، قصرهما وحين فرغ ، التفت إلى القوم ، ونزت حنجرته . . .

ابنتى لود كروعى .

عاشرها بلهجة الليل فقط ، وعاشرته بلهجة النهار ، والليل . كان نهارها مزدحماً ، كأنه عدة نهارات خصصت لها جميعاً ، كانت تغسل ، وترضع ، وتطهو طبيخاً واحداً لايتغير . وعندما يتسخ النهار ، ويهتز لونه ، تخلع عنها لهجته ، وترتدى لهجة أخرى .

وكان كلما هم بالقيام إليها ، يأكل طبقاً من طبيخ القاورمة ، الذى يصنع من البصل ، ويطالب منها أن تدهن جسمها بودق الإبل . وكان بيته ممتلئاً بجوالات البصل ، وصفائح الودق ، كان ينفق فيها أموالا غريبة .

جاءته ذات يوم ، ووجهها أحمر ، كأنه عطن فى شفق ، وفمها ينفتح وينغلق ، كأنه أفلت عن طوعها ، تنطق حرفاً ، وتؤجل آخر . سألها الإمام ، وكان باركاً

على ركبتيه ، يلتهم طبقاً عاجلا من طبيخ (القاورمة) ، كانت أسنانه تتعارك ، ولحيته مواربة قليلا ، وقد احتلت الرغبة ، نصف مكانها . . .

– مالك الليلة يابنت السيد ؟ هل نفد الودق الذى عندك ؟ تشجعت ، وأفرزت كلماتها دفعة واحدة ، كأنها عثرت على شريط لاصق ضفر كلماتها بعضها بالبعض . . .

– أريد أن أسأل سؤالا يامولانا .

– إسألى ماتشائين ، فليس من حرج بين المرء وأهله ؛

– أريد أن أسألك ، لماذا تأكل طبيخ القاورمة ؟ وتطلب منى أن أدهن جسمى بودق الإبل ، عندما . . .

وسكتت كأنما انقطع الشريط الذى يضفر كلماتها ، وأصبح وجهها أكثر احمراراً ، كأنما عطن فى الشفق مرة أخرى .

ضحك ودكروعى ضحكة غريبة . لحس أصابعه بقاع لسانه ، وتوقفت أسنانه عن العراك ، وانكمشت رغبته قليلا ، وبدأ طرف لحيته واضحاً يزحف على وجهه ويحاول مزاحمتها فى المكان ...

– ألا تعرفين ياجاهلة ؟ لماذا لم تسألى من زمان ؟ إن طبيخ القاورمة يابنت السيد ، يزيد الشهوة عند الرجل ، وودق الإبل يعمقها لدى المرأة . هذا كل مافى الأمر .

- عندما أصبح ودكروعى إماماً ، وتزوج بنت السيد ، صارت الناس تحترمه ، وتجنح إلى آرائه ، وتخلت ريح (السموم) عن اللهو به ، وصارت الكلاب تحنى أذيالها ، وتذبح نباحاً خاشعاً ، كلما شق جمعاً منها . فعندما زحف وباء الحنظل على أشجار النخيل ، وأتلف ثمارها، قال لأهل القرية : اعرقوا وجفوا ، واتقوا الله ، ففعلوا ، واندحر الوباء . وهو الذى لملم أمزجتهم ، وأقنعهم بمشروع الحصانة القروية ، الذى تقدم به (طه مكى) والذى يشتمل على الآتى . . . :

- كل مواطن فى القرية ؛ تمنح له الحصانة القروية .

- يجوز منح الحصانة القروية ،لكل وافد إلى القرية، يرى أهلها أنه يستحقها .

- تقضى الحصانة القروية، بوقوف أهل القرية جميعاً ، إعصاراً واحداً فى وجه كل من يعتدى على حرماتها ، خاصة جرائم النهب ، والشرف . ولو أدى ذلك إلى قتله .

اقتنع بعض أهل القرية بسهولة ، وبعضهم بصعوبة شديدة ، وكان (البادى ودا ينحوف) أول من اعترض ، وقال إن هذا كلام فارغ . وأقيم فى ذلك اليوم احتفال ضخم ، بدأ دينياً ، تحدث فيه الإمام عن صلة الرحم ، ومزايا الأخوة والمحبة ، وما ينفع الناس فى هذه الأرض ، ثم مضى . كانت لحيته واضحة تماماً ، وصوته خالياً من

أى نبرة دنيوية ،واستمر الحفل سياسياً ، اعتلى (طه مكى) ظهر (فتاح السمح) وتحدث بحماس واقعى بحت ، وندد بسلبية العلاقة ، وانعدام التماسك ، وبين نقاط مشروعه ، وحث على استخدام الحصانة فيما ينفع القرية . وتدريجياً بدأ الحفل ينزح إلى المجون . أكل (ود صالح) مغنى القرية ، تمرتين ناضجتين من ثمار اللبخ ، ورفع طنبوره ، شد أوتاره وغنى . . .

(الحصانة الحات تقبلا .
تمسك الإيد وقت البلا .
انت يافتاح ادخلا .
شوف مروتك وين قبلا .
جاباطه الرايق ظريف .
زى رشاشاً دافرو الخريف .
لو نده واحد بالطيف .
نبقى كانا بره ونقيف .
خلى بالك ود ابنعوف .
انت ما بتضمنلك ظروف .
حامى موية النيل النضيف .
وساو وشيك الزى الرغيف) .

أحنت (مستورة السقدة) جارية العمدة سابقاً، رجولتها

التى لاتخطئها العين ، قليلا ، فبانت شذرات من تركيبها النسائى المتنحى ، فى هيئة بقع من النعومة ، تحلول جاهدة أن لا تنقرض . وتذكرت زوجها (النجاشى) الذى ساهم فى إنضاج هذا الجسد ثم رحل . قالت فى نفسها . . لو أن الحصانة جاءت قبل اليوم . ثم وزعت عرقى القصب الذى تجيد صناعته ، مجاناً على فتاح السمح ، وود صالح ، وكل من رغب فيه . ورقصت (حاوم الداية) حزمت وسطها بحبل أخضر من سعف النخيل ، وحركت جسدها المتباين بنعومة شديدة ، فلم يبن فيه نتوء أو حفرة ، وذاق كل من فى الحفل شبالها . وتلتها (سعدة بنت مكاوى) . كانت كأنها طوفان من السحر ، أرسلت ليلها الهمجى المتفرع على كتفيها ، ودالك عطرها المساحة ، قلوباً وغرائز . وظل صوت ودصالح يطاردها ، حتى تقطعت بحاته (كان يتاوى حين تتلوى ، ويستقيم حين تفعل . وكان فتاح السمح يتجشأ زفارة عرقى القصب ، ويرقص بعصاً من الخيزران ، وكان يخرج الساعة اليدوية الصغيرة من جيبه بين حين وآخر ، ينظر إليها قليلا ، ثم يعيدها إلى مكانها . وجلست فتحية أم خرز ، داية القرية القديمة ، وصاحبها التاريخى هادئين ، يلوحان بوجهيهما المعزولين ، ويبتسمان ، فينكشف كهفان أكثر عزلة . أما الباهى ودابنعوف فتمد ضحك ضحكة صافية ، بدا معها النيل رائقاً أخضر الضفتين .

واستمر الحفل ، حتى داهمه الصباح القروى بهمهمة الطيور وهى تصحو ، ورائحة النوار ، والبرسيم المبلل ، ونداء الحقول لزراعها ، والنيل لمحركى نشوته .

وظلت الحصانة القروية بعد ذلك مشروعاً غامضاً ،مضمراً فى القلوب لم يخرج عنها ، وعندما احتاج إليها (صابر) ، تاجر القرية ، بعد أن داهمه الرجال الحكوميون ، وطه مكى نفسه ، عندما حاول الأعراب الفتك به أمام منزل (سالم بنت الرحمة) بعد أن زارتها المرأة الغربية ، لم يستطع أحد إبرازها .

سقطت حبات المسبحة دفعة واحدة بين أصابع الإمام ، أعادت وجهه من بعيد ، التقطه ، وألقاه على ودكارا . كان لايزال يجلس أمامه ، عيناه محمرتان أكثر من ذى قبل ، ووجهه خال بلا ملمح يدل عليه . سأله ..

ــ مالك ياعبد الله ؟

كان غريباً عن القرية ، دخلها حفيداً لأحد الأعراب ، ممن يقطنون الصحراء حول القرية ، بعيدين عنها بطقوسهم وعاداتهم ، قريبين منها بأجسادهم التى تزحمها من حين لآخر . يدخلونها للعمل فى الحقول ، وبناء البيوت ، وفى موسم لقيط البلح ، أو لشراء لحم (الورل) الذى يشكل وجبة رئيسية لديهم . حيث يجففونه ، ويحتفظون به لأوقات طويلة . بقى ودكارا فى القرية لصيقاً بعبد الغفار الإمام ،

يصاحبه منذ أن تشرق الشمس ، يلتقيان عند صلاةالفجر، ويظلان معاً أغاب اليوم . وعندما تنقضى صلاة العشاء ، يذهب الرجلان ، كل إلى حاله . ينغمس الإمام فى الليل ، يروض ساعاته ولا يهدأ . وينغمس المؤذن فى الليل أيضاً . تنفلت قدماه ، وتنهشان القرية .وتتسع حواسه عن آخرها ، تبتلع القرية كلها ، يرى ، ويسمع ، ويعرف ، وعندما ينطفىء من الليل نصفه ، يذهب إلى بيته وينام .

كان ذا عينين محمرتين ، تنزفان بلا انقطاع ، ووجه تحدق فيه ، فلا تلمس ملمحاً تمسكه . ولم تكن له (مشية) معينة عندما دخل القرية . قال جده أنه يستعير مشية والده الذى بقى فى الصحراء ؛ فقد نشأ بلا مشية يملكها . وعندما بقى فى القرية ، نزع جده عنه مشية والده ، حملها معه ورحل ،فأصبح يستعير مشيات أهل البلد جميعاً . . يمشى بمشية (الباهى) عندما يسبح فى النيل ، ومشية (حامد ود طلب) عندما يئز شخيره الرياحى ، ويزيح الهواء عن موضعه ، ومشية الإمام أيضاً عند ما ينغمس فى ليله الخاص وعندما مات (ودكارا) ، أحد أهل القرية الكبار ، آلت مشيته إليه فاقتنصها ، وجدد فيها ، وصار يعرف بعبد الله ودكارا ، بدلا من عبد الله ود العرب .

رآه الإمام مع جده ذات يوم . كانا وجهين حدق فيهما ،

فلم يعثر على ملمح يمسكه ، وجسدين نقل بصره إليهما ، فأمسك بملابس مميزة ، يرتديها الأعراب . كانا ينحنيان على الطريق ، أيديهما تعمل بخفة ، يوثقان كومة من الحطب ، بحبل متين . نظر إليهما ، نظرا ونفذا إليه ، أقرأهما السلام ، فاحتك به صوتان فى تلك اللحظة . صوت كأنه نثر بقعة من الطين على ملابسه ، وصوت كأنه أزالها . أخذهما إلى بيته ، دعاهما إلى الغداء ، طلبا وجبة من لحم الورل ، فاعتذر الإمام وقدم لهما أشياء بديلة ، تقبلاها بغير رضاً . بعد ذلك رحل الجد ، وبقى حفيده الذى انتشر فى القرية ، يؤذّن ويرى ، ويسمع ويعرف . أقيل له (الطاهر ودكوشى) الذى عمل مؤذّناً للمسجد منذ إنشائه ، وكان يطمح لأن يكون إماماً ، وأحاطته القرية بوجوهها وأرضها ، واقترح ود صالح أن تمنح له الحصانة القروية ، فوافق الجميع بلا استثناء . بعد ذلك حاول ود صالح استقطابه إلى الغناء ، فرفض بشدة .

انتبه ودكارا على صوت الإمام يسأله ، مرّر يده على وجهه ، ثم ضغط بأصبعه على عينيه ، فزاد احمرارهما . حوّل حواسه إلى وجه الإمام ، تشبّث به قليلا ، ثم فر ...

كان كسيحاً ، تفتح له الصحراء كوّة صغيرة يحدق منها ، وتغلق عنه عوالم بأكملها ، يحلب النوق ، ولا يدرى أين ترعى . يفتح عينيه ، وينظر ، يرى البيوت ، خياماً من

الشعر ، تنبت فى الصحراء ، كأنها بقع من الزيت تلطّخ قميصاً . ويرى القوم أعراباً بادين ، يتشتتون فى الصحراء كأنهم صفائح تالفة ، تصب ذلك الزيت . ويغلق عينيه ، فيرى الليل بداية لاتنتهى . دخل التّربة فتلقّفته . الآن يسمع ، الآن يرى ، الآن يمشى . شىء فى الماضى يعذبه ، وشىء فى الحاضر ، لا يعرف كنهه . فاضت أشياؤه كثيراً ، وتشكل له زمنان ، ماضى وحاضر ، كان يغدو بينهما ، ولا يمضى إلا ليحضر . ثم ذلك الذى حدث بالأمس ، كيف حدث ؟ إنه لا يعرف . كان يرتعد ، ويتراكم النزيف على عينيه ، كلما تذكر .

قالت له (بنت الحصّول) ، المرأة البدوية الأصل ، والتى نزحت إلى القرية منذ عهد بعيد ، وساعدتها يداها المدرّبتان على صياغة الخيام ، فى العمل كماشطة للنساء ، قالت له يوماً . . .

تعال أزوجك إحدى بناتى يا عبد الله .

طفح حاضره فى ذلك اليوم ، تحول لسانه إلى هبّة من نار ، لفحت المرأة ، حتى احترق قسم من جلدها ، وفرّت إلى بيتها ، لتحاصر الحروق بشىء من الزيت . وذهب إلى الإمام ودكروعى وأخبره ، فاختفت لحيته فجأة ، وقال . . .

أخطأت يا ودكارا . بنت الحصول إمرأة ذات مجد

وشهرة . ألا ترى آثار يديها على شعور النساء ؟ إذهب إليها ، وطيّب خاطرها ، وفز بنصيبك من الدنيا .

ثم أخبره عن فوائد الزواج ، ولم ينس أن يوصيه خيراً بطبيخ القاورمة ، وودق الإبل .

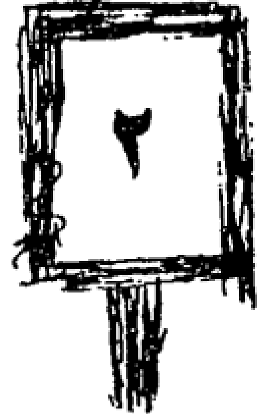
لكن المؤذن لم يذهب . لم يستطع أن يقتلع قلبه الذى كان مغروساً فى مكان آخر . رآها لأول مرة ، فتشكّل وجهه الباهت بخريطة ظلت فى وجهه حتى إختفت الفتاة عن عينيه . كانت تنحنى على الجدول ، تشرب بقطعة طويلة من البوص ، ورآها مرة أخرى ، كانت تجلس على (التكم) ، تحرك الثيران ، والساقية ، فتحولت أطرافه إلى ساقية ، ودار حتى سقط . وأمام منزل سليم بنت الرحمة ، رآها ترقص . رأى وجوهاً تمتصّها ، وقلوباً تحتسيها ، فتشكّل وجهه ، واستدار باستدارة أعضائها ، وبصق عدة مرات على الأرض ، وذهب .

كان قد توغّل . ذهب فيضانه إلى أماكن عدة . أتاه صوت الإمام . كان قوياً ، وكان آمراً ، جمّعه من الأماكن كلها ، وألقى به فى وجه الصباح . . .

لماذا لا تجيب على يا ود كارا ؟ مالك اليوم ؟ هل ترعى غنم إبليس ؟

لعق شيئاً من الصباح ، وتمتم . . .

زوّج لى سعدة بنت مكاوى .



ترجّل (طه مكى) عن وجه عادى الملامح ، طالما اكتساه ، قرّب بين الرياح التى تعصف فى قلبه ، وملامح وجهه التى بدأت تكتسيها . أبصر فورة العشق ، مريضة الالهاث ، تخرج عن دمه . وطفرت مقلتاه بدموع ، دحرت رجولة ، أحسّها تتراجع كثيراً . كانت القرية محيطاً عامر الصدر يأوى بنيانه ، وتحّول المحيط إلى ثقب ضيّق الحدود يهرس لحمه . هذا ليس يومه بأى حال من الأحوال .

سأله (صابر) ذات يوم ، وكان صفر اليدين ، والقلب ، جندلته معركة أشهر لها أحلامه ، وأشهر لها الغير سيوفهم ...

– لماذا رشحت نفسك فى الإنتخابات يا ود مكى ؟
يومها ، جسّد مظهر الخاسر الشريف ، دون أن يجهد نفسه ورد عليه . . .
حتى أساعد أمثالكم ، يا ود الشيخ ، وننهض بالقرية معاً .
– ولماذا سقطت إذن ؟
– لأنكم لم تعطونى أصواتكم .
– نحن يساعدنا الله يا ود مكى .

ذلك اليوم ضحك كثيراً ، ضحك حتى رأى ضحكاته مجسّدة أمامه ، ترتدى أثواباً عديدة ، وتعدو فى القرية . صابر (المدروش) بقميصه الذى يرتدى نصفه ، ويحمل نصفه على كتفيه ، ومركز أحلامه الذى دُمِّر تماماً . كان يتقن اللعب . إذن فقد ماتت النخلة التى غرسها ، وجاهد فى ريّها زماناً . وعندما توقّف عن الضحك أخيراً ، أحس بوعيه يتدفق حاراً ، ويغمر إحساسه . شدّ قامته ، وجاهد يوماً كاملا ، ينهش القرية خبباً ، وعدوا ، يبحث عن ضحكاته التى فرّت ، حتى يعيدها إلى مربطها . لم تمت ياطه .

حين أكمل تعليمه فى العاصمة ، لم يبق كما يبقى المتعلمون . فضّل الرجوع إلى القرية ، هنا منبع القلب ، وهنا مصبه ، يشرب من النيل ، يفرد ظهره على قيزان الرمال ، يعطى وجهه للقمر حين يتسع ، يرضع من لونه ، ويعشق الصبايا ،

حاملات النبل والأسى ، يتوضأ بتقاطيعهن ، وينحت خصوبتهن على لحمه . جاء إلى القرية ، وعين أحلامه ، حوّل بيته إلى زاوية فريدة ، تزدحم بكل ما يعرفه ، سماها الوطن . وكانت حلماً ممكناً ، جسده ، وغزا به القرية . كان يستقبل فيها أهلها ، ويقتنص المسافرين بلوارى (الدناقلة) ، التى تشقّ القرية ، صباح مساء ، يحشرهم فيها ، ينحت أحلامه على أذهانهم ، تارة باليدين ، وتارة باللسان ، وتارة بالقلب ، هذا أضعف الحلم . وكان يقول دائماً ، أن وطنه متسّع ، يضم كل شئ ، ولا ينفى شيئاً . ثم قدم مشروع الحصانة القروية ، فكان شيئاً رائعاً ، رحّبت به القرية .

حين استقر فى القرية أكثر ، عاشها وعاشته ، نمت فيه قوة جبارة على استدعاء الحلم . طالت أحلامه ، واكتست قامات مديدة ، أهلّتها للنزوح إلى وهاد أخرى . صار يحلم ويستدعى أحلاماً ، لا تخطر على بال أحد . صار يحلم بهارون الرشيد ، ومريم العذراء ، وآدم ، قبل خروجه من الجنة . صادقهم جميعاً . تقن عاداتهم ، يلتقى بهم كل يوم ، يقضى لياليه معهم . وعندما يبرز الصبح من مكمنه ، يسرع إلى صابر . ما أحوج الرجل إلى حلم يمرغ قلبه فيه ، وما أحوجه إلى رجل مثل صابر ، يرسخ ذلك الحلم . يراه من بعيد ، بقميصه الذى يرتدى نصفه ؛ ويحمل نصفه على كتفيه ، ظهره إلى دكانه ، ووجهه إلى الطريق ، تتساقط ملامحه

ملمحاً . . ملمحاً ، كأنما يحارب رغبة ليس أهلالها ، وعندما يلمحه ، يلغى دكانه تماماً ، تلتم ملامحه ، تعود إلى مكانها فى وجهه ، وتتضح بمتعة لا يتعب من شربها كل صباح . ولم يكن صابر يحلم أبدا ، فقد دمر مركز أحلامه تماما . كان مجندا فى الجيش . وفى إحدى الليالى ، حلم بنفسه قائدا عاما للجيش ، يلبس الأخضر ، والأبيض ، والرمادى ، ويأكل السمك ، والقشدة ، والبرتقال ، ويغمر أسنانه (بسجنال تو) ، وفى تمارين ضرب النار ، يقف متعامدا على الأرض ، عيناه تعاقران جوا فروسيا جبارا ، وصوته ينطلق قويا وجارحا ، يأمر وينهى ، فتنكمش العساكر فى أزيائها ، ويمتنع المواطنون عن الاقتراب ، والتصوير . وعندما أصبح الصبح ، بكى بكاء شديدا ، فقد وجد مركز أحلامه ، وقد أصيب بالشلل النصفى . بعد ذلك رضى بحاله ، وقنع بالأحلام التى تواتيه . وفى أحد الأيام ، زاره (حكوميون) قالوا أنهم من العاصمة . كانوا ثلاثة يرتدون وجها واحدا ، كأنهم ولدوا واحدا ، وتجزأوا بعدذلك . جلسوا عنده ساعة ، أكلوا الفطير باللبن ، وشربوا الشاى ، والقهوة ، وعصير الحراز ، وشكوا من وجع فى أضراسهم ، ونوبة من الخدر أمسكت بأجسادهم ، ثم نهضوا بعد ذلك : نفضوا ذرات من الرمل علقت بثيابهم ، وصوبوا وجههم الوحيد إلى صابر . قال أحدهم أنه الرئيس ،

وقال الثانى أنه نائبه ، وأسرع صابر وقال للثالث ، أنت أكيد مساعد الرئيس ، فدهش الرجل كأنما سئل عن يوم وفاته ، وكاد وجهه يتخلى عن زيه الموحد ، وأجاب بصرامة : لا !

بعد ذلك دخلوا دكانه ، فلم يتركوا رفا مستوبا إلا أداروه ولا دائريا ، إلا ساووه ، فتحوا العلب المغلقة ، وأغلقوا المفتوحة ، وقالوا لصابر بعد أن فرغوا ..

— بع الزيت ، ولا تبع خلاصة الزيت .

— استبدل العسل الأبيض بروح الكافور ، واترك العسل الأسود كما هو .

— لماذا لانرى فى دكانك حاصلات آلية .

— نق الدخن جيدا قبل أن تشتريه من الأهالى ، ونقه مرة أخرى قبل أن تبيعه لهم ، فنحن عاجزون عن استيراد الدواء .

— افتح دكانك فى السادسة صباحا ، وأغلقه فى السادسة مساء .

— أحضر آلة حاسبة ، حتى تسهل معاملاتك التجارية .

وختموا حديثهم بأن قالوا له . . .

فى المرة القادمة ، نرجو أن يكون مظهرك لائقا وأنت تقدم لنا الشاى ، والقهوة والفطير باللبن .

بعد ذلك ذهبوا ، حملوا معهم ضعف إيراده منذ أن بتدأ التجارة ، وتركوا له أوراقا كثيرة ، تحمل توقيعهم ، قلبها فلم يلتقط ذهنه شيئا ، ولمح اسمه منحوتا عليها ، يبكي وقد تقوس ظهره .

وكاد صابر يجن ؛ فى ذلك اليوم ، ذهب إلى النيل عشر مرات ، غطس وطفا ، ونظف أسنانه بالطين ، وعبر المسافة إلى الصحراء ، زاحفا على يديه ، وركبتيه . شرب شيئا عند الأعراب ، وكاد يتزوج منهم . ذهب إلى الإمام عبد الغفار ود كروعى ، وطلب أن تبرز له الحصانة القروية ، فلم يفده الإمام شيئا ، وقال له اصبر يارجل .

وفى اليوم التالى ، كانت الطامة قد خفت على صابر ، وأصابت ما تبقى من مركز أحلامه . وعوّض ذهنه ذلك سريعاً ، باتساعه المذهل ، وابتلاعه الغريب ، لكل حلم ينبت فى القرية . وكانت أحلام (طه مكى) هى أحلامه المفضلة ، يفرد لها ذهنا أتوى ، ويبتلعها بنهم شديد ، ولم تكن تنضب أبداً . وعندما ينتهى الحلم ، يذهب إلى شأنه ، فلم تكن تهمه النتيجة أبدا .

— ها ياود مكى ، أين قضيت ليلة الأمس ؟

— فى قصر الرشيد

— وكيف كان قصر الرشيد هذه المرة ؟

— كان فخما كما وصفته لك من قبل . وقد أضيفت

إليه بعض الثريات الجديدة . جلست على يمين الرشيد ، راستمعت إلى اسحق الموصلى ، يغنى . كانت ليلة رائعة ، وكانت فى انتظارى مفاجأة لم أكن أتوقعها .

— مفاجأة ؟ . وماذا كانت ؟

— جارية أجمل من كل الجوارى اللائى وصفتهن لك من قبل .

— هذا جميل ، وكيف كانت هذه الجارية ؟

— أنت تعرفها ياود الشيخ .

— من هى ياود مكى ؟ أرجوك أخبرنى .

يلغى دكانه أكثر ، لا يلتفت إلى النداء الصارخ ، واليد التى امتدت خلفه ، تحمل دينا قديما ؛ جاءت تسدده ، يتسع ذهنه كما لم يتسع من قبل ، وتقف ملامحه على وجهه ، موحدة الجهود ، لتنهل ذلك الحلم الذى كان غاليا .

— يصرخ من لحمه . .

— إذن كانت هناك لكن كيف حدث ذلك ؟ أرجوك أخبرنى ياود مكى .

— لا أعرف ياود الشيخ ، قلت لك إننى دهشت كما دهشت أنت الآن .

يضحك طه مكى فى سره ، يرحل إلى داخله ، ويجتر الحلم . كانت (سعدة بنت مكاوى) ، رآها فى ذلك اليوم ،

كانت كأنها سبحت فى عطر وكانت ، تنحنى على الطريق ، تلتقط حزمة من القش سقطت منها . امتصّها جزءا . . جزءا ، واستعادها كاملة فى الليل .

يأتيه صوت صابر محموما ، يشده من الداخل بعنف :

– وهل تحدثت معها ؟

– أكثر من ذلك .

– كيف ؟

– انظر .

يمد عينيه إلى حيث أشار فى وسط جلبابه ، يستردهما سريعا ، يهمل الرجل ، وينشط إلى دكانه ، يحييه من جديد.

وعن طريق طه مكى ، تذوّق صابر نشوة الأحلام التى لو بيعت له لاشتراها . عرف حدود دولة الروم ، والفرس ، وشهد كرنفالات الغجر ، وأعياد الحصاد ، وصولات الملوك ، وجولاتهم . عاش الحربين العالميتين ، وكاد يجرح فى إحداهما ، ونودى فى الناس ، أن اخرجوا للجهاد ، فخرج معهم . رتلا عليه (طه مكى) ذات يوم ، خطاب الخليفة عبد الله التعايشى ، إلى الملكة فيكتوريا ، ملكة بريطانيا . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله التعايشي ، خليفة الإمام محمد أحمد بن عبد الله ، إلى جلالة الملكة فيكتوريا ، ملكة الانجليز .

أما بعـــد

إننا ندعوك إلى الإسلام ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله. فإن قبلت الإيمان ، والنطق بالشهادتين ، سلم ملكك ، وأمنت رعيتك ، وزوجنا لك الامير يونس ود الدكيم . وإن امتنعت ، فإننا محاربوك ، حتى تؤمنى .. إلخ .. إلخ ..

سأله صابر ..

ـ وهل حاربها ؟

رد طه مكى مكذّبا وعيه ..

ـ لا أعرف .

قال صابر ، وكانت ملامحه كأنها تتضرّع ..

ـ عندما تلتقى بالخليفة عبد الله فى المرّة القادمة ، قل له لاتحاربها ، وزوّجها لصابر ودّ الشيخ .

ضحك طه مكى ، وقال ..

ـ لو زوّجها لك ، لطلقتها فى نفس اليوم .

قال له صابر مرة ، وكان قد استرخى ، وتجشأ ، بعد أن شرب حلمه الجديد ، وسرى فى دمه ، ولم يكن عنده زبائن فى الدكان ..

— كان الباهي ود ابنعوف عندي أمس .

— الوجه الدرامي ؟

— نعم .

— ماذا كان يريد ؟

— جاء يشتري صنارة ، وخيطا جديدين .

— ثم ؟

— حكيت له حلمك عن الرجل الذي لقيه النعمان بن المنذر في يوم بؤسه .

— وماذا قال ؟

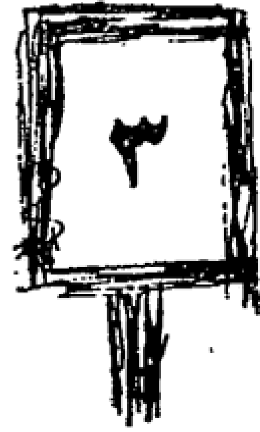
— قال لي إن ود مكي شيوعي مجنون ، لا تسمع كلامه .

كان طه مكي يقول دائما ، أن الباهي هذا ، شخصية غريبة ، وفريدة في نفس الوقت ، وهو أكثر الوجوه في القرية ، يصلح لأن يوظف حلميا ، كزعيم للخوارج مثلا ، أو مبعوث لكسرى ، لدى عمر بن الخطاب . وحاول عدة مرات أن يبتلعه ، ويستعيده في الليل ، لكن فشلت تجاربه جميعا . وفي ذلك اليوم ، عندما أخبره صابر بذلك ، غضب غضبا شديدا ، ذهب إلى (وطنه) ، حاصره بيديه ، وعينيه ، وقلبه ركنا ركنا ، وعاد لصابر ، ليقول له :

إنني لم أجد شيئا يدل على أنني شيوعي ، أما مجنون ، فهذا ممكن .

ويشعر طه مكى ، بغرابة الموقف ، كلما تذكر ذلك الصباح الذى أخبر فيه صابر ، أنه حلم بآدم . قال له . . لقد التقيت بآدم ، ورأيت عورته ، فلم تكن شيئا شاذا إلى هذا الحد . بل لم يكن لديه عورة على الإطلاق . وأن آدم أرانى ضلعه الذى تشكلت منه حواء ، فوجدته سميكا ، لايمكن ثنيه بسهولة . فبهت صابر ، ارتعد ذهنه بشدة وغابت ملامحه تماما كأنما مر عليها إعصا ح بها . انكفأ على وجهه ، وتقيأ الحلم كله ، دفعة واحدة ، ثم مضى من أمامه ، ولبث عدة أيام لايفتح دكانه ، وكاد ييأس منه. استدعى كثيرا من الأحلام ، حتى ضاق بها وطنه ، ولم يعرف أين يرسخها . وظهر صابر ذات رم ، كان جسمه نحيلا ، ووجهه يابسا . زاره فى بيته ، بكى عند قدميه ، وطلب حلما جـــديدا . ما أغرب ذلك ! ، قال لنفسه فى ذلك الحين ، ما أغرب ذلك ، قال لنفســـه الآن ، مد يده إلى خده ، تناول دمعة كبيرة ، كأنها حصيلة لعدة دمعات ، أبت ألا أن تمسك ببعضها البعض . كانت تنحدر ، وتشق طريقاً على خده ، نظر إليها طويلا ، كأنما يحاول نقلها إلى وعيه . قربها من عينه ، حاول إعادتها إلى منبعها انفلتته ، وذابت بين أصابعه . ما أغرب ذلك حقا ؟ هل يسرع إلى صابر ويخبره ؟ إن صابر لن يصدقه ، سيتقيأ أمامه كما فعل من قبل . وقد يخسره إلى الأبد .

عند ذلك ارتعش جسده ، أغلق وعيه الباطن بصعوبة ، وفتح وعيه الظاهر ، ألقى عينيه على الصباح ، فلم ينبهر .



جلست (سليم بنت الرحمة) على دكّة من الطين ؛ أمام منزلها ، وغرست وجهها فى الصبح الذى بدأ يلتم ، ويفرد حفاوته على القرية . كان الحليب كأنه جفّ فى الضرع ، والصدر يعلو ويهبط ، كأنه طلمبة الماء ، تضخّ بإرادة خفية . وكان الصباح الذى تستنشق لونه الآن ؛ وتغرس وجهها فيه ، هو أول صباح تصادفه ، منذ أن زارتها المرأة الغريبة ، فى تلك الليلة . مدّت يدها إلى صدرها ، تناولت القرش الأبيض الذى يتدلى عليه ، بخيط رقيق ، قرّبته من عينيها ، نجتت بصرها عليه ، فتحول لونه

إلى الأصفر ، حوّلته إلى أنها ، شمّته ، فتحول لونه إلى الأبيض مرة أخرى . كلّمته قليلا ، قالت : يا بنت عبد القوى .

قال : يا بنت الرحمة .

– كيف حالك يابنت عبد القوى ، عساك بخير .

– بخير ، بخير

– أين أنت الآن

– إننى فى بلاد بعيدة ، وسأزورك مرة أخرى .

فجأة تذكرت مارأته بالأمس ، فكاد حالها يرتد إلى ما كان عليه لولا أنها لمحت (الباهى) ، بقامته الحادة كأنها الحربة ، وأطرافه المو زّعة يميناً ويساراً ، يشق حفاوة الصبح ، متجهاً إل . .

كان الليل ثاقب الظلمة ، تبرز ظلاله ، وتلتمع ، كأنها طُليت بالسواد ، عدة مرات ، عندما أغلقت طقوسها الليلية ، واتجهت إلى فراشها . كان زوجها (حامد ودطلب) ، نائماً منذ عدة أيام ، يئز شخيره الرياحى ، ويكاد يطيح بتعريشة القصب ، التى تقبع فى حوش الدار . وكان إبناها الحسن والصادق ، غائبين . فجأة توغّل فى سمعها ، طرق ناعم على الباب ، مالبث أن اخشوشن ، اتّجهت إلى الباب ، وسألت عن الطارق ، فأجابها صوت جارح ، كأنه بُرى لتوه . . .

أنا امرأة غريبة ، جاء بها الطريق .

فتحت الباب ، فرأت أمامها امرأة ، كأنها شظية من الليل ، أفلت عن جسمه . كانت تقف ، ووجهها إلى الباب ، وعندما أبصرت سليم ، تحولت فجأة إلى الوراء ، تمتمت بكلام غريب ، وأشارت بيديها ذات اليمين ، وذات اليسار ، كأنها تصرف قوماً كانوا يرافقونها . مدت سليم عينيها إلى الخارج ، فلم تبصر أحداً . سألتها ، هل معك أحد ؟ أجابت بالنفي ، دعتها إلى الدخول ، فدخلت على على الفور ، أجلستها على سرير من الحبال ، لكن في حوش الدار ... سألتها ...

من أين أنت قادمة ؟

ردت المرأة ..

من بلاد بعيدة .

كان صوتها هذه المرة ، هامساً ، كأنه نجوى ، نزح إلى سليم ، فاحتلب كل رقة فيها ، وقذف بها إلى فمها . كان صوتاً كأنها سمعته من قبل .

سألت بعطف ..

لابد أنك قطعت مسافة طويلة ..

— نعم .. نعم .. مسافة طويلة ياابنة العم .

— وإلى أين ستذهبين من هنا ؟

— بلاد خرى »

— هل أحضر لك عشاء ؟

— يجزيك الله خيراً يابنت الرحمة ، إنني لم آكل منذ يومين . بهتت (سليم) ، فقد كانت المرأة تعرف اسمها ، وللحظة همت بالسؤال ، لكن المرأة الغريبة ، كشفت عن وجهها ، فأبصرت (سليم) وجهاً تجيد ملامحه ، كأنها صاغته بيديها . وكان غائباً عنها ، لم تره منذ مدة . ولم تصدق . ألقت بكيانها عليها ، واحتضنتها ، وقامت من فورها ، ذبحت ديكاً ، اجتهدت في طهيه ، وقدمته إليها ، فلم تترك فيه لحماً ولا عظماً . ثم نهضت واستأذنت في الانصراف ، فأبت سليم ذلك . شدتها من ملابسها ، ورجتها أن تبيت معها . لكن المرأة رفضت بشدة ، وأخرجت قرشاً أبيض ، يتصل بخيط رقيق . اقتربت منها ، وعلقته على جيدها ، وقالت لها ..

حافظي على هذا القرش يابنت الرحمة ، إنه روحي ، فلا تضيعيه ..

قالت سليم ..

ولكن لماذا لاتبيتين معي هذه الليلة ؟

— أنا مضطرة للسفر ، ولكن سأزورك قريباً ..

— إذن أخرج معك ، وأقدسك في الطريق .

— يجزيك الله خيراً يابنت الرحمة .

التقطها الباهي من أطراف جزيرة ترب ، على مسافة يومين من القرية . كان عائداً بحماره من إحدى القرى

البعيدة . رآها فلم يصدق أنها سليم بنت الرحمة ، جارية (الغبش) ، وزوجة حامد ود طلب ، وأم الحسن ، والصادق . كان شعرها مفروداً عن آخره ، يغاب بياضه على سواده كأنه خصل من الليل ، ضلت طريقها إلى الفجر . وكانت يداها ، وقدماها تنضحان سواداً ، وعلى صدرها قرش أبيض ، يتدلى من عنقها بخيط رقيق ، ووسطها مقيد إلى شجرة ضخمة من أشجار الحراز ، وفمها مفتوح ، ينز هتافاً غريباً . .

يابنت عبد القوى روحك معي ، روحك معي .

حاول الباهي إسكاتها ، فلم يقدر . ضربها على ظهرها ، وهزها من جزعها النحيل ، فغضب هتافها وكاد يعاركه . حل وثاقها ، وأخذها إلى القرية ، تغيب تارة فيظنها ذهبت ، وتحضر تارة ، فيزحم هتافها الطريق . . وهناك زارها (الخليفة إلياس) ، فلم يبق معها سوى لحظات ، باع بعدها أرضه ، وانتزع امرأته وأبناءه ، وخرج من القرية .

بعد ذلك زارها الشيخ منصور ، والشيخ السادر ، وريحان العربي ، وعثمان ود شاطر ، والعمرابي ، وحاج أحمد ، وفضيل الراعي ، وعباس أبو جبل ، والختمي ، وطايوق ، وود صفية عابر البحر ، وخليفة السيال ، وأولاد جعفر ، وناموس ، والكنجم ، وسنجاوى ، وود عسيب الكبير ، وأبو حجل ، والمناقلي ، وفاروق ود تورنه ،

ونور الدين الصائم ، وأمونة بنت السد ، والعاجب ، وطوكراوى ويونس ودتور الدخن .

جاءوا من كل مكان، من منابع النيل ، ومن مصبه ، ومن جفاف الصحراء ، وواحاتها. زحموا القرية بعطورهم المميزة ، ومسابحهم اللالوب والصندل ، وكانت عصيهم طويلة أحياناً تلدحر قامة الرجل ، وقصيرة أحياناً ، ينحنون عليها . بعضهم جاء بأتباعه ، وبعضهم جاء بنفسه . طوقوها وقال الشيخ منصور ...

– إنها آخت جنية من جوارى سليمان ، نقلت إليها عاداتها وتصرفاتها ، ويصعب فصلها عنها .

وقال السادر ...

هذه المرأة ، أمضت عامين كاملين فى مملكة للجن ، كانت خلالها وصيفة لملكتها ، وكادت أن تستقر هناك وتتزوج ، لولا أن وشى بها بعض الأعيان لدى الملكة فغضبت منها ، وطردتها من ملكها .

ضحك الباهى الذى كان يستمع يومها إلى الشيخ ، ضحكة طويلة ، تطاير معها رذاذ من النيل ، لاريب أفلت عن دمه ، وعطر جبة الشيخ .

كان وجهه مغسولا ، وحاجباه ، كأنهما طالا فجأة ، ونزحا إلى أبعد من وجهه .. قال ..

– ولكن ياسيدنا ، إنها لم تغب سوى ليلة واحدة ، فكيف حدث هذا كله فى ليلة واحدة .

تزحزح الشيخ قليلا فى مجلسه ، فبدت لحيته جهمة ، كأنها سئلت شخصياً . مال على الباهى قليــلا ، وقال هامساً . .

– ياإبنى ، إن الليلة عندنا ، تعادل عامين كاملين عند الجن . نحن إنس ، وهم جن .

قال الباهى مرة أخرى ، وكان النيل هذه المرة واضحاً جلياً على وجهه ، يحتضن ضفتيه بقوة ، ويحقن النخيل المتعامد عليهما ، بدم وافر النشاط .

ولكن من هى بنت عبد القوى يا سيدنا ؟

– إنها ملكة الجن بلاريب .

– وهل يتسمون بأسمائنا أيضاً ؟

– نعم . . نعم، ومنهم المسلمون ، ومنهم النصارى ، وفيهم شيوخ يدرسون القرآن فى الخلاوى ، ونساء أجمل من بنات الحور .

عند ذلك نهض النيل ، كأنه شبع ، نزح إلى آخرين ، أرخى ضفتيه ، فسمع كلاماً متشابهاً ، وكلاماً مختلفا ، ضمت الضفتان بعضه ، ولفظتا بعضه . بعد ذلك طوقوها أكثر . وصفوا لها أشياء لو حقن بها الوجود لأفرز سماء غير السماء ، وأرضاً

غير الأرض . . وصفوا لهـا جذوع المحريب ، وزفارة السمك ، والحبهان الذائب ، وعصير الطمى ورغوة المسك ، وعطر التبلدى ، وحساء الجوافة ، ودهان النعناع ، والقرض والتمر هندى ، وأرسلوا يطحنون لها القمح عند مقام إبراهيم. قالوا ترقد فى الشمس تارة ، وفى الظل تارة أخرى ، وتشهد لقاح الإبل والماعز ، تتوضأ بالحليب ، وتستحم فى اليوم عشرين مرة . ولما لم تطب ذهب ابنها الحسن إلى بلاد « الحمر » وجلب خمسين رجلا ، وجوههم كحوافر الخيل حين تركض ، وسيقانهم تطول ، وتقصر . رقصوا لها رقصة الجرارى ، والمردوم ، والتش تش ، ودقوا لها (النقارة) سبع دقات ، وثمانية وعشرة . . . وتحول المكان إلى دائرة جذب جبارة ، تضاء بقناديل الزيت ووجوه الصبايا ، ارتدت النساء أفضل ماعندهن ، وأبدين زينتهن كاملة بلا نقص . ووقف الرجال ، معلنـة رغباتهم يلتقطون . وتكامل الحشد بود صالح . وقف فى ذروته ، طنبوره فى يسراه ، وقلبه فى يمناه ، عينـاه ترضعان الوجوه ، وبوجه يتدلى من فمه ، هامساً مرة ومعترفاً مرة ، فيغمر الليل بنشوة الشبـع ، وفورة اللحن عندما يدغدغ الحواس فيلهبها .

(الغزل بنوت الشمال .
حاملات الود والخصال .

كاسحات الويل فى الجمال .
واقفات فى الليل أب ظلال .
ألف نظرة،وألف احتمال .
الغزل خلانى اتمحـــيت .
شان أقول غنيت ماأبيت .
كل ماأقول يتلاوى السبيط .
ينطلق عبادى وخليط .
يدحر التربال النشيط) .

ورقصت مستورة السقدة بذكورتها التى لاتخطئها العين ، جاءت من (حى العبيد) غائرة الحياء ، يتبعها رجل وامرأة . وقفت فى وسط النساء ، ومالت على الرجال ، ثم خلعت جلبابها ، وحلبت ثدييها ، وركزت للضرب ، حتى اهترأت نشوتها ، وعادت إلى حى العبيد ؛ يتبعها ظلها الذى بالكاد يرسم قامتها .

واتسعت دائرة الجذب أكثر ، فامتصت الأعراب المرابطين على حدود القرية عند أطراف الصحراء . جاءوا بإبلهم ، رصعوا دائرة الجذب ، بنساء كجوارى الملوك ، سافرات الحسن والوعد ، شعورهن تناطح الليل فتلقيه . وقفن فى الدائرة ، فاحتللن القلوب ، واحتلبن الخطى من كل بيت فى القرية ، ورأى ودكارا أهله ، فكاد ماضيه

يطفح ، ويغلب على حاضره ، فتصيد عدة عورات ، علقها فى ذهنه ، ومضى فى القرية ، يحملها، تسقطعنه ، ويلتقطها .

وخطب (طه مكى) خطبة أنفق ليلتين ، وأضاع حلمين نادرين فى سبيل صياغتها . تحدث عن الجوع ، وتلوث البيئة ، واحتمال الوقوف أمام الله عرايا من كل شيء ، وأشار إلى هجرة العرب إلى السودان ، وما تبعها من انحسار فى الدم الأفريقى الساخن ، فتهيج نفر من الأعراب ، ظنوه يسيء إليهم ، حلوا مآزرهم ، والتقطوا سيوفهم ، وكادوا يفتكون بحماسه ، فاضطر إلى التقاط بعضه من الأرض وانتزاع بعضه من الآذان التى شربته ، وابتلاعه مرة أخرى ، وخرج من المكان مقسما ألا يعود .

وكاد ود صالح يسلخ الأرض عن لحمه ، ويكتسى أرضاً أخرى ، أمطر الحسن البدوى ، دماءه بمزيج من الجوع والعطش ، فجاع ولم يشبع ، وعطش ولم يرتو . أكل عشرين ثمرة من ثمار اللبخ وأخرج صوته عدة مرات وشذبه ، حتى صار حاداً يجرح الليــل ، فلا يبرأ ، وأنشد . .

(الغزل بنوت العرب
صافيات اللون كالذهب

جالبات الحب والطرب
قلبي شافن شرق غرب
الغزل بنوت البدو
ناعمات كالأنجم بدوا
في حسيس الصائد شدوا
شالوا قلبي معاهم خدوا
كيف أقول لليل ما تمش
ماتت العين قبل الرمش
في البلاد أبكي وارتعش
واكثرة القول والنبش
ياحليل أيام الحصاد
ياحليل أمونة وسعاد
بكن الشوق الزاد وزاد
وخلفن للرادن رماد).

وكان كلما انتهى من لحن ، طلبوا لحناً جديداً ، كان يستجيب وينطلق صوته الحاد ، ويترك في كل ليل يغزوه جرحاً غائراً ، حتى تحولت الليالى جميعاً ، إلى خرق ممزقة ، لانفع فيها . وفي إحدى الليالى ، حلف عليه فتاح السمح ، أن يغني قصيدته التي نظمها هو في نعمات المدرسة ، ولحنها ود صالح ، فاستجاب له وأنشد ...

(روعة التعليم والدروس
بادية فى نعمات يانفوس
حين تجيلك دافراها الشموس
تحضر الحصة بلا عبوس
الشمس شافت روعتا
خلت الجية خلاص خلتنا
كيف أسيب واهجر للبلد
طالما نعمات زينتا) .

رقصت سعدة بنت مكاوى فى هذه الفقرة ، كما لم ترقص من قبل ، كانت ساطعة بلا منازع ، شحذ الجميع عيونهم وامتصوها ، وزغردت لها حلوم الداية ، زغرودة يانعة ، كأنها أخذت خاماتها من جسمها ، وردتها إليها ، وبصق ودكارا على الأرض مراراً ثم ذهب وكادت تحدث كارثة فى تلك الليلة ، فقد فقدت عدة فتيات عذريتهن ، عندما أفلت الصوت ونفذ إلى أماكن حبيسة ، وكادت تموت طفلة ، احتلك بها الصوت ، وترك فيها أثراً . واستل أحد أهل القرية نشوة غريبة ، أخذ يرقص بها فى وسط الحشد ، وهدد كل من يقترب منه ، لولا أن تكفل به فتاح السمح ، أطفأ نشوته ، وجره إلى خارج الدائرة .

وفى تلك الفترة نشطت تجارة صابر . أضاف إلى

دكانه رفوفاً جديدة ، وجلب فروات الصلاة ، وأباريق المياه ، والخرز ،والعاج ؛ وسن الفيل، وتاجر فى الذهب والحنّاء ، والصندل ،والطلح ، وملابس النساء ، والعطور بأنواعها . وعلق عصى الأبنوس والخيزران على واجهة دكانه . ولم ينقطع رغم ذلك عن أحلام طه مكى ، لكنه كان يبدو متعجلا ، يرتدى ربع قميصه ، وقبل أن يستقر الحلم فى ذهنه تماماً ، تتبلور خطاه ويسرع إلى دكانه . .

فى أحد الأيام ذهب إليه طه مكى ، الذى كان بعيداً عن تطورات الأحداث ، منذ ذلك اليوم الذى أقسم فيه ألا يعــود . وكان قــد قلل زياراته لصابر . ذهب إليه ليشنف أذنيه بحلم جديد فوجد عنده قوماً لهم لحى طويلة غزيرة كأنها نبتت قبلهم ، وتفرعوا منها بعد ذلك . وكان صابر يبدوعارياً فى ذلك اليوم يرتدى بوصة فقط من قميصه ، قال له حالما لمحه ..

ـ مرحباً ياود مكى ، هؤلاء شيوخ الحضرة ، جاءوا يشترون ذهباً وملابس لنسائهم .

ولم يدهش طه مكى ، كان يعرف ما يحدث . اقترب منهم ، وسلم عليهم . تأملته اللحى قليلا ، ثم ردت السلام . أهملها ، واتجه إلى صابر ، همس فى أذنه .

ـ عندى حلم جديد تماماً يا ود الشيــخ .

ـ حلم ؟ إذن قل بسرعة ياود مكى ، إنى مشغول كما ترى .

ـ لقد التقيت بماريا المجدلية، ولن أزيد حرفاً واحداً ، إلا إذا تفرغت لى ياود الشيخ .

ولأول مرة يرى طه مكى ، وجهاً يطول ويقصر ، بهذه الطريقة ، وأذنين تضيقان وتتسعان ، وتقف حاسة السمع مبلورة على حدودهما . كان صابر يتمرغ فى رغبتين فى تلك اللحظة ، أضعفهما أقوى من الأخرى . كان يلقى أذنيه ذات اليمين ، فتلتقطان خيطاً من اللحى الممتدة ، ويلقيهما ذات اليسار ، فينقطع الخيط . وأخيراً رجحت كفة الحلم . التفت إلى اللحى الممتدة أمامه ، وقال بنعومة شديدة ...

لحظة واحدة يا أسيادنا ، سأعود حالا .

وخرج يتبع طه مكى . . .

من هى مريم المجدلنية يا ود مكى ؟

ـ ماريا المجدلية .

ـ هل هى إحدى جوارى الرشيد ؟

ـ لا يا ود الشيخ ، إنها من عصر آخر .

ـ آها . . آها . .

ـ رأيتها فى حالة لا يتصورها عقل ، كانت تهيم فى

الصحراء، ملابسها ممزقة، وجسمها خشن، ممتلىء بالجروح . وكانت تبحث عن جرعة من الماء كى تغتسل .

– وماذا فعلت معها ؟

– لاشيء ، فقط بكيت ، فلم يكن عنــدى ماء أعطيه لها .

وفجأة تضاعفت رغبته . . .

لكن قل لى يا ود مكى . . من الذى جرحها ؟

– لم تخبرنى .

– أرجوك إذا قابلتها مرة أخرى ، اسألها عن الذى جرحها .

لاتنس ، هذا ضرورى جدا .

وظل صابر يطارده عدة أيام بعد ذلك ، تتحرك رغبته نافذة الصبر على وجهه ، وتبدو ملامحه مخدوشة من أثر السقوط ، إلى أن عرف فهدأت رغبته ، وبرئت ملامحه .

واستيقظ حامد ود طلب ذات يوم ، أطفأ شخيره الرياحى ، وحرك عينيه ، فرأى أناسا لا يعرفهم . دعكهما بكم قميصه ، وحركهما مرة أخرى ، فرأى أناسا يعرف بعضهم . سأل عن حسناته وسيئاته ، فقالوا له أنت فى بيتك يا رجل . سأل عن الإمام عبد الغفار ود كروعى ، فقالوا له إنه لم يأت إلى هنا أبداً . سأل عن نبات (الفيروز) المخدر الذى جلبه من سفره ، قالوا له سرق . ثار ثورة

بغيضة ، وأخرج سوطا من العنج ، كان يدخره لمثل هذه الأمور ، جعل قميصه بين أسنانه ، وسرواله مرفوعا إلى ما فوق ركبتيه ، وهاص فى المكان ، فجفت كل نشوة كانت تغمره ، ولملم الأعراب إبلهم ، ونساءهم ، وارتدوا إلى الصحراء ، وعاد شيوخ الحضرة من حيث أتوا . ورمم ود صالح صوته ، أعاد إليه سمكه القديم ، وأنشد . . .

العجوز حامد ود طلب .
أب عضاما فى الحطب .
مالو قام من نومو انقلب.
سوى فعل اللوم الكعب .
سلى سوطو وقال ياخلق .
البقيف حتما يتفلق . . .
شوف عيونو المتل النبق .
وشوف صليبو المتل الطبق.
مابخاف من سوطك واجر .
بينى بينك واحد متر .
ما تقيف تمملك أجر . .
تلقى فى ظلمات القبر .

ولم يغضب حامد ود طلب ، ضحك ضحكة خضراء ، كأنها سقطت من النخيل فى يونيو ، ثم تناول كرباً من

الشاى ، وفنجانين من لبن الطير ، وثلاثة سيجارات ، وعاد إلى نومه . بعد فترة مات ، فورثت (سليم) شخيره الرياحى ، وأتقنته ، وتوقف هتافها الغريب . ثم هاجر إبنها الحسن بعد ذلك إلى الشرق ، فأخذت قامته وطالت ، وهاجر إبنها الصادق إلى الغرب ، فأخذت قامته ، وارتدت إلى طولها الطبيعى .

نظرت إلى الباهى ، وهو يتجه إليها من بعيد ، رأت وجهه الأسمر المغسول ، وبقايا الطمى التى تزينه ، كأنها نقوش من الفضة . تأملت قامته الطويلة الحادة ، وأطرافه الموزعة يمينا ويسارا ، أحست بها ترسل إليها شيئا كثيرا ، وشمت النيل الذى يرتديه ، فانشرحت . كم تحب ذلك الرجل . تقول أمه أنها حملت به بعد سبع بنات ، نامت فى ذلك اليوم ، ورأت فى المنام ، شيخا أبيض اللحية ، والرأس ، يخرج من النيل فى ساعة ظلام ، وكان وجهه مضيئا ، تساقط منه النور على المكان ، فتحول إلى فجر وكان يحمل بين يديه قماشا مطويا ، اقترب منها ، وقدمه إليها قائلا . .

هذا ابنك الباهى .

وعندما أصبح الصبح ، حكت المنام لجاراتها ، فقلن لها . . . أبشرى ، ستحملين بولد .

عشق الباهى النيل من صغره ، تعلم السباحة والصيد ، وكان يعبر إلى الضفة الأخرى ، وهو طفل .

تقول أمه . .

كان يذهب إلى النيل ، منذ أن تشرق الشمس ، ولا يعود إلا بعد حلول الظلام .

صاحت سليم ، حالما اقترب منها . .

– ود ابنعوف . . ود ابنعوف .

كان جلدها نظيفا ، وقد ذهب السواد الذى كان يدمغه.

صاح الباهى . .

– الحمد لله على السلامة يابنت الرحمة .

غمرها بالرذاذ النيلى الذى كان يتطاير من فمه ، كحبات المسك ، ألقت بنفسها على صدره وبكت ، كأنها عكرت صفو النيل ، بحجارة ألقتها عليه ، لكن الصدر النيلى كان واسعا ، وكان قويا ، يغطس إلى القاع ، ينتشل جسدا على وشك الغرق ، ويطفو على السطح ، يجرف جثة يحملها العرق .

قالت ، بعد أن دفقت كل ما عندها على النيل . .

– أين أنت يا ود ابنعوف ، لم أرك منذ مدة طويلة .

– قولى بسم الله يا بنت الرحمة ، أنا معك كل يوم .

– لا . . . لا يا ود ابنعوف ، أنا لم أرك منذ العام الماضى .

- أنت كنت فى حالة ثانية ، والحمد لله الذى رد إليك العافية .

هدأت بعد ذلك ، لم تسأل عن زوجها ، أو ولديها ، وكان النيل متأهباً أن يفرد لها صدره مرة أخرى . مدت يدها إلى صدرها ، تناولت القرش الأبيض ، قربته من فمها ، ففطن الباهى إلى ذلك ، مد يده ، وحاول أن ينتزعه ، فتشبثت به وارتعد لونها ...

- لاود ابنعوف ... هذه روح بنت عبد القوى .

تركها ، وكاد ينصرف ، أمسكت بضفتيه ..

- انتظر ياود ابنعوف .

التفت ، صوب إليها أعماقه ، رأى عينيها تبرقان ، وتنطفئان ، ولونها يحمر ويبيض ، ويصفر ، نطقت بصعوبة ...

- أمس ، كأنى رأيت حلماً غريباً ياود ابنعوف .

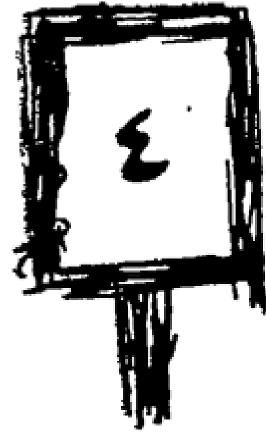
- خير يابنت الرحمة ، اهدئى . . اهدئى

وأجلسها على دكة الطين ..

- ها ... ماذا رأيت ؟

- رأيت كأن شيئاً غريباً يحدث فى بيت الزينة بنت أحمدون ، القديم .

كانت كلماتها كافية لأن تجعل النيل يضطرب ، كأن صخرة كبيرة ألقيت عليه هذه المرة .. تراجع الباهى إلى الوراء قليلا ، كأنه يفسح مكاناً للدهشة ، لتمر منـــه . فتح ضفتيه ، وأغلقهما ، تراجع إلى الوراء أكثر ، كأن دهشته أكبر من المكان الذى أفسحه ، استدار . كان الصباح غريباً ، وكان صابر يبدو من بعيد ، عارياً تماماً ، يتقيأ شيئاً عجيباً .



تناول ود صالح ، تمرتين كبيرتين من ثمار اللبخ . أوقد ناراً صغيرة ، وضعهما عليها . بعد قليل تشكلت رائحتها ، فأطفأ النار ، وبدأ يأكل . ثم مد يده إلى طنبوره . حمله وخرج إلى الطريق .

كان آخر من تبقى من عائلة البشارى . تسربوا واحداً . . واحداً ، وتركوا خلاصتهم فى القرية ، تحمل أوزارهم ، وتدرأ عنهم النسيان . فتح عينيه منذ الصغر ، فلم يجد أما تحلب اللبن فى الفجر ، وتشرب الشاى ، والقهوة ، وتفرد شعرها للمشاط فى الظهر ، ويرق صوتها فى الليل ، كسائر نساء القرية .

كانت أمه شبياً ناضباً ، كأنها مخلاة أفرغت من محتوياتها . لم تكن تضحك أو تتحدث كثيراً ، وكان كل كيانها متجهاً إلى شجر اللبخ الذى ينبت فى حوش البيت . تقضى النهار بطوله تسقيه ، وتحصد ثمره ، وأفردت حجرة كبيرة فى البيت ، تخزن الثمر فيها . وعندما يدخل الليل ، تجلس على عتبة البيت عدة ساعات ، ووجهها ينهش الطريق ، ويداها تقلبان حجاباً صغيراً ، وصوتها ينتفخ حتى يضيق به حلقها . . .

اللهم اكف (صبر) شر الطريق .

ثم تدخل بعد ذلك ، ترتدى قميصاً آخر فوق قميصها ، وتنام .

وكان والده ، شيئاً أكثر غرابة ؛ كان ضخماً ، ينام على سريرين ، ويتدفق جانباه على الأرض . وكان يسكر برائحة الفليت ، الذى يجلبه له أخوه صبر ، وينام فينتفخ فمه عميقاً ، يطفح برائحة الفليت ، وتهرب كائنات الليل . وكان أول ما يستيقظ فى الصباح ، يردد جملتين فقط . صار ود صالح بمرور الزمن ، يرد على الأولى ، وينفذ الأخرى ، قبل أن يفتح والده فمه . . .

ـ هل حضر صبر ؟

ـ إذهب يابشرى ، ونظف حجرته .

ولم يكن يبرح سريريه أبدا . كان كل شىء يجلبه

له ، وهو فيهما ، حتى (بيت الراحة) ، كان ود صالح يحمله على كتفه كل صباح ، ويجلبه إليه ، ولم ير ود صالح والده يتحرك ، إلا ثلاث مرات فقط . مرة عندما أذيع خبر وفاته ، فى نشرة الأخبار المحلية ، من إذاعة أمدرمان . ثار فى ذلك اليوم ، ثورة لم يطفئها إلا عودة صبر ود حنحان ، وسب عدة بلاد بشعوبها ، وحكامها ، وتحرك حتى موضع الراديو ، وحطمه . ومرة عندما استلف منه ، حامد ود طلب ، عدة قروش ، لبثت عنده زمانا . وجاء أحد أهل القرية ، وقال له ، إن حامد ود طلب ، يلقح نقودك ، ويخرج منها نقوداً كثيرة ، فصدقه ، وذهب إليه ، واستعادها . فكان يومها كأنه (البركل) ، يمشى بين الناس . وكانت أخطر تحركاته ، عندما مات أخوه صبر ود حنحان .

لم يكن ود صالح ، يعرف الكثير عن عمه . كانت القرية كلها تعرف أنه مغن ، ولم يسمع أحد خلجات طنبوره ، ترفرف فى القرية . كان يخرج من البيت ، يحمل طنبوراً كبيراً ، وحقيبة سوداء ، مليئة بثمار اللبخ . يغيب أسبوعاً ، وشهراً ، وعامين ثم يأتى . لايسلم على أحد ، وينطق جملة واحدة ، كأنه يخشى أن ينفق شيئاً من صوته . .

— أفرغى الحقيبة ، ياطيبة ، واملئيها .

ثم يدخل حجرته .

وتقوم (طيبة الرزوقية) ، أم ود صالح ، فراغها يمتلىء فجأة بشيء من اللطف ، وشيء من السرور ، تسرع إلى الحقيبة وتفرغها . تحمل زجاجات الفليت أولا إلى زوجها ، ثم تضم ما تبقى من الأشياء بقوة . ويمتد لسانها ، من فمها ، يدعو اصبر ، بطول العمر . بعد ذلك تذهب إلى مخزن اللبخ ، تملأ الحقيبة بالثمار وتضعها ، فيأتي عمه ، يأخذها ، ويمضي . وفي إحدى المرات ، ظفرت يداها بطقم لامع للأسنان ، ركبته على فمها ، فوق أسنانها ، فرآها صالح ودحنحان ، فرقص جسده الضخم ، وتداخلت أقاليم بطنه المختلفة ، وقال لها . .

ــ كأنك أسأت إلى صبر ، بمنظرك الخبيث ، فجلب لك الدواء . ذلك اليوم ، كان مغايراً . حمل عمه حقيبته ، وخرج ، ولم يغب سوى يومين ، ثم عاد . كان جلده رمادياً ، كأنه مر بقوم يطفئون نارا ، فغمروه في رمادها . وكان وجهه (مسهوكاً) ، كأنه عطن في شيء ، طمس قسماته . وكان يلبس زيا غريباً ، لم يره أحد يرتديه من قبل . أحنى قامته ، وهو يدخل ، وسلم على الجميع ، ثم جلس ، وكانت حقيبته فارغة .

نادى : ياطيبة .

فأسرعت طيبة الرزوقية ، وجلست تحت قدميه .

قال . . .

نادى المنادى ياطيبة ، دعى صالح يعش بعدى كثيراً ، ودعى بشرى ، يذهب إلى الساقية ، ويغمرها . وإذا أتاك جماعة غرباء ، وقالوا لك ، نريد حنحان البشارى ، لا تطرديهم ، أو تبلك فى وجوههم . اسألى أكبرهم سنا ، وأغربهم هيئة ، هل أنت صاحب فضل عليه ؟ ، فإذا قال نعم ، قولى له ، مات حنحان البشارى ، وقال لك ابحث عن غيره ، ثم أعطيهم كل ما معك من اللبخ ، وخذى ما يعطونه لك . هل تفهمين ياطيبة ؟ هل تفهمين ؟

ثم أسلم الروح .

حملوه إلى القبر ، ومشى خلفه نفر قليل ، كان جلهم من أهل القرية . وكان بينهم رجل أعرج ، أسود الوجه . ظل يبكى ، وكلما خرجت من عينه دمعة ، ازداد صوته علوا . . كان يردد . .

ضاعت النعمة ياصبر ، ضاعت النعمة ياصبر ، ضاعت . . ماذا أقول لنساء الدرايسة ؟ ماذا أقول لرجال المساليت ؟ ماذا أقول لأطفال الباحة ، وتل الرمل ؟ هل سيصدقنى أحد ؟

وظل يبكى حتى نضب صوته ، وأفلتت غدد الدمع ، وسقطت على الأرض .

ولم يسأل عنه أحد أبدا بعد ذلك ، وظلت ثمار اللبخ ،

راكدة على أرض المخزن ، مدة طويلة ، حتى آلت أحقيتها لود صالح .

وفى ذلك اليوم ، حملت طيبة الرزوقية ، جسمها الناضب ، وطقم الأسنان ، الذى يقلق فمها ، وذهبت ، ولم يرها أحد بعد ذلك . وتحرك صالح ود حنحان تحركه الخطير . ربط رأس عمامته فى أحد سريريه ، وربط رأسها الآخر ، فى إحدى أشجار اللبخ . وظل يروح ، ويغدو بينهما عدة أيام ، حتى رحل نصف وزنه ، وصار ينام على سريرين دون أن تلمس جنباته الأرض . وكان يقول لكل من جاء يعزيه . .

– صبر ، قتله الكفار . كان أرجل منهم جميعاً .

توقف ود صالح عن السير قليلا ، التقط رائحة فى الهواء ، أحس أنه يعرفها ، ثم عدل طنبوره وأخذ يغنى . .

قال له والده بعد موت صبر بعدة أشهر ، وكان قد جاع ، ونضب الفليت الذى عنده . .

– تعال يا بشرى .

اقترب منه . رأى عينيه اللتين غاصتا فى وجهه ، كأنه بكى بهما . قرية بأكملها ، ولمس بيديه ماكان يعانيه . . قال . .

– نعم يا والدى .

— اذهب إلى حجرة صبر ، خذ أحد طنابيره ، وأطعمنا .

دهش ود صالح من طلب والده . . وقال . .

— لكن أنا لا أعرف .

قال والده بعنف . .

— قلت لك خذ طنبوراً ، وبيض سيرة صبر .

ولم يعرف ود صالح ماذا يقول لوالده فى تلك اللحظة ، كان لايعرف شيئاً عن الغناء . وقف فى مكانه كأنه أضيف إلى ركود البيت .

فجأة ، صرخ والده صرخة عظيمة ، تقيأ بعدها ضعف كلامه منذ أن ولد ، وتناثرت عباراته حـــول ود صالح ، وحاصرته ، وبدأت مهيأة للانقضاض عليه . كان يقول أشياء سمع بها ود صالح مرة ، وأشياء سمع بها مرتين ، وأشياء لم يسمع بها أبداً من قبل . .

— اذهب عن وجهى يا بشرى قبل أن أقتلك . رحم الله عمك صبر ، وعوضنا فيه . كان طنبوره أطول من رقاب عشر جمال ، حين يحمله بين يديه يمس قعره الأرض ، وينطح رأسه السماء . كان يحفظ غثيان الطيور ، وبكاء النساء ، وزفة البجع ، وشخير الذئاب ، وعتاب المحبين ، وصرخة الظالم ، وصرخة المظلوم ، وانفعال الخادم ، عند رؤية سيدها . وكان صوته حمولة « عشره

طن » غنى به للأمراء ، والفقراء ، والعمد ، والمشايخ ، وضباط السجون ، وأرباب السوابق ، أضحك به الطناجوة ، والأتراك ، وأبكى به الدود فى قاع الأرض . وكان حكيماً ، يركب الصعبة ، ويقتل الهينة ، ويجلب الرزق من هشيم النار . . اذهب . . اذهب . .

وذهب ود صالح عن صراخ أبيه ، لكنه لم يذهب بعيداً . دخل حجرة عمه ، وشتت بصره فيها . كان كأنه يدخلها لأول مرة . رأى أشياء لم يكن يراها أبداً ، وهو ينظف الحجرة . رأى خرقاً قديمة ، ومياهاً غازية ، وأوراقاً خضراء ، وصفراء ، وبنفسجية ، كتباً تتحدث عن الكون ، وما قبل الحياة ، وما بعدها ، ولحس بصره ورقة طويلة ، عليها كتابات شجعته . أخذ طنبوراً ، وخرج ، واتجه إلى مخزن اللبخ .

حين غنى لأول مرة فى القرية ، فى إحدى المناسبات ، ضحك حامد ود طلب ، ضحكة ، تسرب إليها شىء من شخيره الرياحى ، كأنه كان عالقاً بفمه بعد نومة طويلة ، وقال . .

لم أسمع صبر ود حنحان أبداً يغنى ، لكن بشرى صوته أجمل .

ومالت فتحية أم خرز ، على صاحبها . أطرت قتاله

القديم ، وأثنت على جبة الأمير محمود ود أحمد ، التى يرتديها ، والتى قال أنه انتزعها منه ، قبل أن يأسره الانجليز ، ثم أضافت . .

– طيبة الرزوقية أعطتنى خمسة قروش ، ورطلين من الشاى ، وحزمة من الجرجير ، عندما ولدت ابنها هذا .

وقالت مستورة السقدة ، التى كانت يومها صبياً فى العشرين . . .

– سأطلق إحدى نسائى لود صالح .

ولم تفعل .

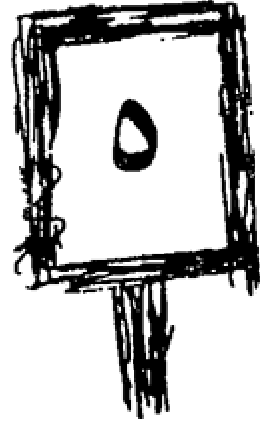
ومن يومها دخل ود صالح حلبة الرزق ، كان يحمل طنبوره ، وزاده من ثمار اللبخ ، يغنى فى القرية ، ويطوف بالقرى المجاورة ، يلتهم الوجوه النضرة ، ويغض طرفه عما عداها . يحصد مرة نقوداً ، ومرة خبزاً ، ومرة زيراً من الفخار ، وأحياناً بلا حصاد . يعود إلى والده ، يصب حصاده فيه ، فتتداخل أقاليم بطنه المختلفة ، وتتوحد مناخاتها ، ويقول . . .

– كأنك صبر ، قبل أن يقتله الكفار .

ويصب لاحصاده فيه ، فتتفرق أقاليم بطنه ، وتتنوع مناخاتها ، ويقول : .

— اذهب عن وجهي ، لن يعوضني أحد في صبر .

وظل هكذا ، يرحل كل يوم جزء من وزنه ، وتقل مساحته على سريريه ، حتى تحول إلى عود من القصب . ترحم على صبر ود حنحان ثم يبس .



أخرج فتاح السمح ، الساعة اليدوية الصغيرة من جيبه ، نظر إليها مليا ، ثم أدخلها إلى جيبه مرة أخرى . رفع حاجبيه وأخفضهما . أدارهما ، وقوسهما . جعل الصباح يدخل عينيه برهة ، ثم فتحهما عن آخرهما ، وسددهما إلى الجدار الوحيد المتبقى من بيت (الزينة بنت أحمدون) . تجشأ زفارة من عرقى القصب ، باتت فى حلقه منذ أمس ، ولفظ بعدها جملة ، كأنما كانت الزفارة تحجبها ، وتعيقها عن الخروج . .

لعن الله ، هذه الخادم مستورة ؛ كأنها تبول على العرقى .

ثم وسع فضوله أكثر . انزلق إلى المكان ، وانكفأ على الأرض ، شتت خياشيمه ، وأخذ يتشمم .

كان الفجر ، قد بدأ يشرع سريرته ، ويعلن محتوياتها إلى القرية ، عندما أخذت حلوم الداية تعدو ، وجهها كمراح البهائم ، تتبرز أشياؤه . وجسدها يعلن نتوءاً ، ويضمر حفرة – كأنه إبريق للماء ، صيغ على عجل . كانت حقيبتها اللامعة محشورة بين إبطيها ، تنز منها رائحة القطن ، والدواء ، ودم النفاس : وأصابعها مقوسة ، من أثر السعي الحثيث ، فى بئر طفح منذ لحظة . كان هذا أول مولود تصافحه يداها ، منذ أن صاغها الزمن ، لتصبح داية للقرية ، خلفاً (لفتحية أم خرز) ، التى أهانها الزمان ، وخفض رتبتها ، لتصبح داية للبقر والماعز ، وخليلة لرجل من آثار (موقعة النخيلة) . كانت تعدو ، وتصرخ ، تدفعها نشوة النصر ، وتقوس الأصابع الذى جاء بعد طول استقامة . . .

بنت الشريق جابت ولد . . بنت الشريق جابت ولد . .

وفى لحظة قصيرة ، دعم الفضول من قصرها ، تحركت القرية كأنها تتحرك إلى حرب . حملت النساء ، سلال السكر ، والعدس ، وخامات النشاء : والحلبة . وحمل الرجال عيونهم ، وبقايا نعاس أو نشوة ، وذهبوا . كان ابنا على كبر .

دخلوا المكان ونظروا ، فاكتسبوا دهشة لم تفارق بعضهم سنين بعد ذلك . كانت بنت الشريق ، ترقد على جنبها ، فراشها نظيف مرتب ، وحجرتها مغسولة ، تعبق فيها رائحة البخور الصندل ، وكانت تدندن . . .

(خلاص بنت الشريق رثالك .
دفر (فتاح) يرتقلك حبالك .
تحمدى الله وتقضى الليل عباده .
وتقولى كفاية مادايره الزيادة .
جناك أكبر من الجنيات حلاتو .
مرقلك بى سنياتو وصفاتو) .

وكان مولودها ضخماً طويلا ، كأنه ولد منذ عدة أعوام . كان جالساً على حجرها ، يحرك رأسه يميناً ويساراً ، ويضم يديه ويباعدهما . توقف عن الحركة وكشر فى وجوههم برهة ، كأنهم أجهضوا نشوته ، ثم حرك رأسه مرة أخرى ، وابتسم ، فبرقت أسنانه .

بعد عدة أعوام ، صار يلعب الطاب والحجلة ، وكرة القش ، ويشرك للطير ، ويحمل القمح إلى الطحين .

بعد عدة أعوام أخرى ، صار يلقح النخيل ، ويعمل فى قمائن الطوب ، ويتبع عورات الحمير ، ويذهب إلى السوق يوم الثلاثاء ، والخميس ، عمامته كأنها ثلج على رأس جبل ؛

وحماره، يغوص فى الرمال ، يقوم ، ويقع . وعرف كل شيء عن والده ، الذى حمل عصاً من الأبنوس ، وسلة من السعف مليئة بأظلاف الحمير ، وغادر القرية فى ليل غائر النجم . وعندما ماتت أمه ، غسلها وحده ، وعطرها بالمحلب ، وحملها على ظهره حتى القبر . وجاء إليه الناس ، فوجدوا بيته مغسولا ، لا أثر لرائحة الموت فيه ، وقال لهم ،

اذهبوا ، لا أقبل عزاء فى بنت الشريق .

وعندما اقترب من الخامسة عشرة ، رأته (نعمات المدرسة) .

فقالت . .

ـــ هذا موسى ، وهارون .

كانت فتاة عاصمية الوجه، قروية الهيئة ، تنظر إلى وجهها ، فترى الطرق معبدة ، والحدائق منسقة ، والضوء باهزاً ، ينسل ، ويدمع العيون . وننظر إلى هيئتها ، فتشدك إلى حقول القمح ، وأعواد الذرة ، وهفهفة النخيل . بعث بها إلى القرية فى ساعة غضب ، فركبت الطريق لأول مرة . شقق جلدها برد الصحراء ، وتراكم الغبار ، فملأ الشقوق عليه ، وفاجأها الدم ، دون ما استعداد ، ونما فى جنبها الأيسر ، دمل كثيف ، نشأ من أثر يد السائق ، التى

سكنت ذلك المكان ، ولم تكن تبرحه إلا لتغير ترساً ، أو تشعل عوداً من الثقاب . وعندما وصلت إلى القرية ، كانت كأنها بشرت بالجنة . ألقت بنفسها من العربة ، قبل أن تقف ، فسقط جسمها على ظل كثيف ، واصطدم وجهها بجبل شاهق ، حجب عنها الرؤية ، عدة أيام .

ومنذ تلك اللحظة ، أغمدها (الجبل) فى قلبه . أخذ وجهها العاصمى إلى النيل ، وبذر عليه ألوان القمح ، وقامات النخيل . وكان يذهب إلىالسوق ، يجلب لها الرغيف الأبيض ، واللبان اللادن ، ومستلزمات المرأة . ويقعد فى وكرها ساعات ، يسلق لها البيض ، ويغسل أزياءها . وعندما تذهب إلى المدرسة ، يذهب معها ، يجلس فى الأمام ، عيناه تحركانها ، وجسده المذهل ، يحجب التلقى عن التلاميذ .

سألته مرة . .

— هل تحبنى يافتاح ؟

فأحنى الجبل قمته .

سألته مرة أخرى . .

— هل تريد أن تتزوجنى ؟

فأحنى الجبل قمته أكثر .

قالت له . .

هذا صعب .

فأعاد قمته إلى وضعها . وذهب إلى بيته ، غسله بعطر (الصاروخ) ، شد الحبال على سرير كان مرتخياً ، وأخرج ملابس قديمة ، كانت لبنت الشريق ، لفها فى (فركة) سوداء ، وألقى بها إلى الخارج ، وقعد عشرين ساعة . تحت صخره حتى كاد يزيله ، وكتب . .

(روعة التعليم والدروس .
بادية فى نعمات يانفوس .

وعاد إليها ، صب نبعـه الصغير الذى نحته ، على أذنيها ، فتلقت كلماته ، كما تتلقى التهانى فى العيد . حفظت حروفها ، ونسخت منها عدة أوراق أرسلتها إلى معارفها فى العاصمة ، قالت لهم .

أنها تحية خطيرة ، ولا تنسى ، من قروى كفتاح ، له طول نخلة ، وسمك جبل .

وكان الطرب يزين وجهها ، يجعل ميادينه أكثر اتساعاً ، كلما سمعت ود صالح يرددها ، فتلم أصابعها ، تركض إلى الورق ، تنسخ منها أكثر وترسله . .

بعد شهرين ، بعث إليها . . .

زال الغضب يانعمات ، عودى .

حين وجهها العاصمى إلى العودة ، وأبت هيئتها القروية ذلك ، وجلست يومين ، تحاول الوفاق بينهما . وعندما انتصر وجهها فى النهاية ، ارتعد جسدها كله . تذكرت الجبل الذى تسكن قلبه ، وتحسست الدمل الكثيف الذى ينبت فى جنبها الأيسر ، وبكت .

لكن الجبل قدر وجهها ، ولم يعترض ؛ تأرجح قليلا ، وتتابعت من قمته عدة صخور عند وداعها . خلعت ساعتها الصغيرة . قدمتها إليه . وكانت عيناها معلقتين على القمة ، ترقبان الصخور ، وهى تسقط . قالت . . .

— خذ هذه الساعة يا فتاح ، تذكرنى بها . وأقسم لك ، لو قررت أن أتزوج قروياً فى أى يوم من الأيام ، سأعود .

بعد ذلك تذبذب فتاح عدة أيام . كان كأنه يحمل بركاناً . يمشى فى الطريق ، يبرز بلسانه محملا بالأسئلة ، ويختفى ، مقلباً الأجوبة التى يحصل عليها .

قال له طه مكى . . .

— نم مبكراً ، وحاول أن تستعيدها فى الحلم ، تأتى إليك بهيئة أجمل مما كانت عليها .

وقال له الباهى ودابنعوف . . .

ـ أغطس فى النيل ، واقلع ، يدخل الطمى إلى قلبك ، ويخرجها منه .

وقال له الإمام ود كروعى .

ـ اتجه إلى الله ، ستنساها .

وقال له ود صالح . .

ـ تعال معى إلى مستورة السقدة ، وجرب عرق القصب الذى تصنعه .

فغزا قوله فتاح . أطاح بكل الأقوال التى سبقته . أخذه ، شكل منه طبقة كثيفة ، غطى بها الجرح ، ووضع الساعة الصغيرة فى جيبه ، وذهب .

وفى بيت مستورة ، شهد (الخدم) مظلمات كالليل ، عاريات كالنهار ، فضم جسده الضخم ، ليالى ، ونهارات عديدة ، وشرب العرقى بأنواعه ؛ عرقى البلح ، والعيش ، والقصب . ولم يهمل القرية رغم ذلك . كان يحضر فى كل أمر . وعندما أعلن مشروع الحصانة القروية ، كان أول من وافق عليه . حمل طه مكى على ظهره ، و رقص . أحس الجبل بكيانه فى ذلك اليوم . وكان جرحه يمزق الطبقة الكثيفة ، ويطل برأسه ، كلما رأى سعدة بنت مكاوى . كانت تذكره بوجه غاصمى متسع ، وهيئة قروية أليفة ، لكن الجرح ما يلبث أن يختفى مرة أخرى ، وتمتد يد فتاح إلى الساعة الصغيرة ، تحتضنها بقوة .

سمع صوت ود صالح يأتيه من بعيد . كان لايزال منكفئاً على الأرض ، يغرس أنفه فى التراب ، فى بيت الزينة بنت أحمدون . شمها للمرة العاشرة ، وكانت الرائحة الأليفة التى شمها فى المرة الأولى ، تترسخ ، وتستقر بداخله . سمع الصوت أكثر وضوحاً ، هذا ليس صوت ود صالح .

كان كأنه بكاء نثر فى الهواء ، فملأه .

رفع قمته ، أدارها إلى حيث الصوت ، رأى الجسد ، ورأى الطنبور ، ورأى البكاء الذى يشكلانه .

كان مجسماً ، يتجه إليه ، كأنه السيل .

(البنية الكانت قمر .
تحلا بيها ليالى السمر .
مالاجات مخطوفة بصر .
سووا ليها سواة الكتل .
ما بخلوا الناس الشتل .
كان جسيمها هناك منبهل .
وكان يدفق ودق الإبل) .

تفككت قمته كأنها توشك أن تهوى ، وهتف .

هذا غريب ، كأن ود صالح رأى ، وكأنه شم رائحة ودق الإبل .



صرخ (فضل الله ود وناسه) ، عمدة القرية سابقاً ، وصاحب القبر الرخامى الفخم حالياً ، فى لحم جاريته مستورة السقدة ، بنت مستورة الكبيرة ، ذات ليلة . . .

– أغربى عن وجهى ياضكر الخدم ، أنت حرة لوجه الله تعالى .

كان قد هيأ عدة رغبات ، هجنها ببعض ، وأنتج رغبة لامثيل لها ، وبتر حفلا غامضاً ، كان قد ذهب إليه فى إحدى القرى المجاورة،وعاد إلى بيته ، ليبذر رغبته المهجنة فى أرض لم تطأها رغبة من قبل .

جلس على منصبه ، ونادى . .

— يا بنت مستورة .

لبت على الفور ، كأنها أرض تلبي دفقة من مطر ، ووقفت أمامه عارية ، كأنها سر ضاق بكتمانه . نظر إليها برهة ، فارتدت رغبته المهجنة إلى الوراء ، كأنها لدغت ، وتأرجح المنصب تحت أسفله ، وتذكر حفلا غامضاً كان قد بتره .

وغربت عن وجهه ، لتبزغ فى حى العبيد ، تلك المنطقة المتسخة من القرية ، حيث يولد الشخوص مطأطئ المستقبل ، ويرضعون لبناً جنسياً رديئاً .

وكان حى العبيد ، كأنه كان ينتظرها فى ذلك اليوم . نظفت أشياؤه ، حوائط ، ووجوها ، وحوربت آفاته ، قملا ، وغرباء . وخرج ساكنوه ، يحملون نتاجهم على أيديهم ، و « يفرون » وجوههم اللامعة ، بابتسامات مستهلكة ، وجدوا بعضها ملقى على الطريق ، وانتزعوا بعضها علانية من وجوه ، كانت ترتديها ذات يوم . وأبرز لها كبيرهم الشرس (حسن ود تقروى) ، نعومة كامنة فى قلبه ، ظل يدسها ستين عاما ، ولم يبرزها لأحد من قبل .

وفى حى العبيد ، تعلمت مستورة كيف تهلك لتعيش . تعلمت حلب الثديين ، واحتساء الليل حتى الفجر . وصناعة العرقى من البلح ، والعيش ، والقصب . وكان بيتها مجتمعاً

معطوراً ، يضم كل يوم وجهاً جديداً ، ويلغى وجهاً مستهلكاً . .

وظل حالها مستقراً إلى أن دخل حى العبيد رجل أعزب .

كان اسمه (النجاشى) ، وكان يبدو مألوفاً ، كأنه كان أصلا فى القرية ، لم يأت إليها من بعيد . لم يكن يحمل زاداً ، ولا هيأة سفر . وكان وجهه نظيفاً متألقاً ، وملابسه كأنه جهزها لحفل ، ولم يرتدها قط .

قال إنه خليط من عدة أمشاج ، بعضها شكل لونه ، وبعضها قامته ، وبعضها لايزال راكداً ، لم يستقر على شىء بعد . ولكنه ينحاز إلى نبعه الحبشى ، لحاجة يرتضيها الرزق .

كان قد أخطأ فى رصده لخطوط الطول والعرض ، فدخل القرية ، وأخطأ فى تمييزه العنصرى ، صبت أمشاجه فى حى العبيد . شد مخلاته الصغيرة إلى كتفه ، وتحسس وسامه الذى يتدلى على صدره ، وغاض فى الحى دون أن يتسخ .

ساقوه إلى حسن ود تقروى ، فتلقاه بوجهه الخشن ، ودمه المجفف كأنه عرضه لشمس الظهيرة . نقب أمشاجه ، بحثاً عن سلاح أو كنز ، ثم مد يده إلى صدره . انتزع وسامه ، وارتداه ، وقال . .

— هابت وسام الطلاينة ، هذا أقل شيء تمنحه الحكومة للريس حسن .

بعد ذلك بشروه في الحي ، وأكرموه ، وسقطت له النساء شباتا من غير حرب . فدقق فيهن ، وأقسم ألا يخطىء ، فأصاب ، وزوجوا له مستورة السقلة ، قبل أن يطلع الفجر .

كان موهوباً حقاً . تجاهل رجولتها التي كانت لاتزال خضراء ، لم تنضج بعد . وسخر لها وجدانية حمقاء ، قال أنها ظلت تلازمه كأثر لعشق قديم . كان يقضي الليل كله قبالتها ، يشبك يديه ، وقدميه ، ويضعهما على قلبه ، وتذبل عيناه ، حتى تتحولا إلى شرخين صغيرين ، وتخرج منهما دموع سهلة ، كأنها تنتظر الإذن بالخروج . تنفرج شفتاه ، يأخذ شهيقاً ممطوطاً ، كأنه يمتص منها مكوناته ، ويلفحها بزفير أكثر امتلاء ، فيصطبغ جسدها بأشياء متباينة .

وكان عالماً ، طبق فيها أبحاثه في تحليل اللعاب ، وزراعة اللون ، فنجح وأخفق . حلل مرة لعابها ، فاتسع وجهه ، وبانت أمشاجه واضحة جلية ، ترقص ، وتتبادل الأنخاب ، ثم ضيق وجهه ، فتوقف الرقص قليلا ، وقال كأنه يعلن عن فقرة قادمة . .

نجحت طريقة النجاشي فى تحليل اللعاب . سأنال درعاً وطنية .

وأخرج مرة ، خمسة أنابيب ملونة ، من مخلاته الصغيرة ، مررها أمام عينها ، واحدة بعد أخرى ، وهو يقول . . .

— هذا اللون استخلصته من مومس يونانية .

— وهذا من سائح أمريكى ، كان مريضاً بالزكام .

— وهذا لدجاجة محسنة .

— وهذا نموذج من لونى .

— وهذا خليط منها جميعاً .

— ثم سألها . .

— أى الألوان تحبين أن أزرعه لك ؟

ردت مستورة كأنها فى حلم ، وقد اخشوشنت رجولتها الغضة قليلا . . .

— أريد لون زينب .

فضحك الرجل حتى أعاد أمشاجه إلى رقصة جديدة . . وقال . .

— هذا اللون لم أستخلصه بعد .

وزرع لها لون المومس اليونانية ، فأسفرت تجربته عن لاشيء ، وكان يوماً مشهوداً . ركضت فيه الخطى ، والعيون إلى حى العبيد ، لترى أمشاجاً مختلفة ، تحتضر على وجه رجل .

وفى تلك الأثناء ، ظلت رجولتها تنضج شيئاً فشيئا ، إلى أن اكتملت ، فيما عدا بقع متفرقة من الأنوثة ، تنتشر على جسدها هنا ، وهناك : فهجرها النجاشى .

حمل مخلاته الصغيرة ، وتجاربه الناجحة ، والفاشلة ، وصدره الخالى من الوسام ، وذهب .

قال أنه قد يخطىء مرة أخرى فى رصده لخطوط الطول والعرض ، وثقافته العنصرية ، ويأ .

وفرحت مستورة فى ذلك اليوم . كانت كأنها دحرت داء عضا لا أقوى منها . شعرت بشيء غامض ، يتحرك داخلها ، وأسرعت إلى حسن ود تقروى ، فزوج لها أربع نساء دفعة واحدة ، وأشرف بنفسه على هذا الزفاف الغريب . وفى ذلك قالت إحدى نساء القرية . . .

(مستورة الضكر سموها مستور .
(أم سروال منقط ، حالها مسرور ؛
ود تقروى وزير بن ضهرو محدور .
يهوزز فى الحبال علالن النور .
بالمال والبنين يابابا منصور .
وبالسعد اليزور جنياتنا بالدور .

فركت مستورة عينيها أمام الصباح . تثاقلت قليلا ، كأن ما حدث بالأمس ، قد أثر فيها . ثم فتحت فمها ونادت ..

ياسعدة ..

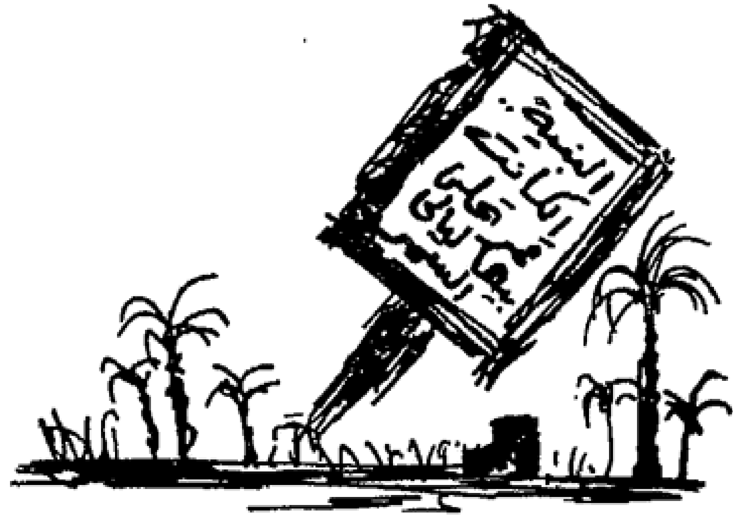
فلبث نساؤها الأربعة ، ووقفن ينظرن إليها دهشات ، ثم قالت إحداهن بغيرة ، كبيرة ، كأنها أربع غيرات ، انطلقن معاً . . .

— سعدة من ؟

ثم كأنها تذكرت ، تدهورت غيرتها الكبيرة إلى الوراء ، ولمع جسدها الليلى بأضواء ممزقة . .



تسعة شهور بعد ذلك ..



في البدء كانت الأذن هي التي التقطت .

قرية (كرمكول) ، بإرثها القديم ، وإرثها الجديد ، كانت تخضع لنظام القرى ، فتخلص له ، وتسقط في هفوات المدن أحياناً بيوتها القش ، والطين ، تبدو مذعورة ، تحاول الوقوف ، تحاول التصدي ، لبيوتها الأسمنت والحجر ، كأنها جمهرة من الأهالي يشهرون سلاحاً أبيض ، في وجه جيش غازي . ترقد القرية في الوسط ، بين النهر ، والصحراء ، خيطاً رقيقاً يفصل الحياة عن الموت . يفيض النيل ، يقتني النخيل قامة أعلى ، وينغرس بجذور أعمق ، ويشتت القمح

لونه الذهب ، فتتدفق خلجات المغنى ، ويشدو بحنجرة الأرض . . .

أرمى شبال يا مهيرة .

وتزحف مهلكات الصحراء ، جفافها الفج ، وتوهانها السحيق ، فينطمس ملمح عريق ، وينبت ملمح مختل ، وتئول الريادة للناعى ، فيغلظ صوته ، ويطول ، ويتردد بحنجرة البوار . . .

أرروك ، أرروك ، أرروك . . .

كان الليل مرابطاً ، وكان حاكماً فرداً ، يصدر أحكامه إلى السماء ، ويبذرها على الأرض ، فتخضعان . وفجأة هوى . نزت الصرخة حتى جسمه ، فبهت ، وأكل الضوء ، ما تبقى . كأن ساقية فتت العمر أحشاءها ؛ كأن بعيراً ، أنيخ على جمر .

حلوم الداية أول من أراد أن يسمع . وجهها تبرز أشياءه حتى نضبت ، وبدأ ينزح إلى ما تحته ، يستعير الأشياء من العنق ، والصدر ، والبطن ، والساقين . حقيبتها اللامعة ، الآن أكثر التماعاً ، تنز منها رائحة القطن ، والدواء ، وثمة فراغ فى قلبها ، يتوق لملئه بدم النفاس . وأصابعها تقوست واستقامت عدة مرات ، كأنما تستعيد لياقتها . .

كانت تجلس على جدود الصرخة ، قريباً من منبعها .

رفعت رأسها إلى أعلى ، وتحرك جسمها المتباين ، يعلن نتوءاً ، ويضمر حفرة ، وانزلقت إلى البيت .

تشربت قنوات الهواء بأنفاس جمة ، اتحدت وتداخلت ، وكادت تئول إلى محصلة مدمرة . وغاص الطريق طبقة إثر أخرى ، صفقت فوقه نعال أليفة ، ونعال غريبة عليه . وسطع الضوء لاهثاً مجنوناً ، فهوى ما تبقى من الليل .

وقف الباهى ، متماسكاً ملتئماً ، كأنه النيل يسطو على القرية . كان وجهه مفتوحاً ، وكان واسعاً ، ليس ثمة طمى ، ولا شلال ، ولا جزيرة نبتت فى الوسط . وجه ضفتيه إلى منبت الصرخة . حاول أن يحتويها ، فطاشت إلى ما بعده ، كأنها تجاوزت النيل إلى البحر . خفض ضفتيه ، اتكأ على لحظة من ركود . لا ريب تناثرت قوارب الصيد ، وهاجرت أجنحة الأوز .

وشرب طه مكى رذاذاً من الصرخة ، فتقيأ على مائدة الرشيد ، كانت الجوارى ، كأنهن يعزفن ، تناثرن حوله ، جففن فمه ، وضممنه إلى صدورهن برهة ، ثم حملنه . التقط شيئاً من الليل ، وشيئاً من الحلم ، وشيئاً غامضاً لم يكتشفه ، ووقف لحظة لا يعرف فى أى عصر هو . ثم جند الليل قشعريرة امتصته ، فطار الطريق إلى قدميه .

برك على ركبتيه ، جمع لحظات مبعثرة ، ثم سقط بصره على ود صالح . . .

كان ود صالح كأنه التقى بغمه ضنين ، فرد إليه طنبوره ، وأخذ لونه الذى مات به . كان يابساً كأنما جففت الصرخة جلده ، وحافياً كأنها جرفت حذاءه . وقف برهة ، ونزح إلى داخله . تذكر وجهاً صبياً طالما احتلبه ، وعنفواناً غضاً طالما تمعن فيه . ثم عاد إلى وعيه ، « فز » جسمه قليلا ، أداره إلى الخلف ، ليرى كياناً آخر .

كانت سليم بنت الرحمة ، بجلباب مشروخ كأنما شقته الصرخة ، وقد بان صدرها ، وبرز ساكناه على استحياء . كانا ضامرين ، هزيلين ، كأنهما عانيا دهراً من الجوع والعطش . مدت يدها إلى صدرها ، تناولت القرش الأبيض ، قربته من عينيها ، بحثت بصرها عليه ، فلم يتغير لونه . حولته إلى أنفها ، شمته فظل لونه كما هو . استلت حوارها . .

- يا بنت عبد القوى .

- . . . .

- تكلمى يابنت عبد القوى .

- . . . .

- هل أنت غاضبة منى ؟

- . . . .

تركته يتزلق على صدرها ، ويقلق ساكنيه ، وأحاطت المكان بعينيها . كان جلدها يلمع فى الضوء ، وفمها نصف مفتوح ، وفيه حوار لم يحدث .

ولعن فتاح السمح مستورة السقدة ، ثم تقيأ جرعة كبيرة من عرق القصب ، تدلت من فمه ، كأنها نبع عكر ، انبثق فجأة فى رأس جبل . أعمل إرادته ، وأوصل سريان النبع . لم تمتد يده إلى كهفه ، لم يخرج الساعة الصغيرة ، لم يترك ميناءها الفسفورى يرى ، ويساهم فى إماطة الليل . اتكأ على قامة مفرودة ، وثبت أطرافه على جانبيه ، كأنه يحجب الصرخة ، يمنع سريانها إلى أبعد مما سرت .

وجاء الإمام عبد الغفار ود كروعى ، وعبد الله ود كارا : كانا يقتربان كأنهما يبتعدان ، كان الليل عاما ، وكان مفتوحاً ، عارك ليليهما الخاصين ، فلم يبق على شيء منهما . رفع الإمام يده إلى لحيته . حاول تثبيتها على فكه ، فزاغت من بين أصابعه ، ونفرت شعيراتها فى المكان . كانت رغبته ميتة على وجهه ، وقد بدأت رائحتها تتصاعد ، وتتسرب إلى الهواء ، خفض يده ، ثم حول وجهه ، ألقاه على ود كارا . . كان واقفاً بقربه ، ينظف عينيه ، ويزيل رذاذاً من الصرخة كان يغبشهما ، نجح أخيراً ، فبانت عيناه فى الضوء محمرتين أكثر من أى يوم مضى .

حتى مستورة النقدة جاءت ، تركت نساءها فى حى العبيد يحصدن شيئاً على النار ، واختطفت رجولتها ، أحكمت ارتداءها . نظرت إلى ود صالح ، وفتاح السمح ، وتذكرت عشق النجاشي ، وتجاربه المريرة ، وكادت تمد يديها إلى ثدييها ، وتحلبهما ، لكنها توقفت .

مالت فتحية أم خرز ، داية القرية القديمة على صاحبها ، تأملت جبة الأمير حمود ود أحمد ، التى تملأ بنيانه ، وتفيض ، وكانت قد أضافت إليها زرارين جديدين ، وجيباً « ماهلا» . فتحت فمها ، كأنها تفتح منزلا مهجورا ، أثنت على شراسة صاحبها ، واستبساله فى مواجهة الانجليز ، ثم عضت على إصبعها بغيظ ، وقالت . .

ــ أحى عليك ياود ضبع ، ماذا كان يحدث لو مددت يدك إلى محفظة الأمير حمود ود أحمد ؟

وأضافت . .

ــ هذا اليوم يذكرنى بيوم ولادة حامد ود طلب . شخر فى وجهى ، وسمعت كل القرية شخيره ، وجاء الناس يتفرجون ، ولم تعطنى أمه شيئاً .

ووقف صابر ينظر إلى الحشد ، كأنه ينظر إلى وجهه فى المرآة . كانت رغبته هادئة ، وملامحه سليمة تماماً ، يرتدى نصف قميصه ، ويترك نصفه ملقى على كتفيه . فكر قليلا ، وبدأ يحرك أصابعه . . .

— الباهي قد يشترى صنارة ، وخيطاً ، وشبكة جديدة .

— ود صالح قد يشترى قدحاً لطنبوره .

— الإمام عبد الغفار قد يشترى جوالا من البصل ، أو صفيحة من الودق .

— بنت الرحمة قد تشترى (صنفرة) تلمع بها قرشها .

— مستورة السقدة ، قد تشترى زجاجات فارغة .

ثم أوقف حركة أصابعه ، واتجه إلى دكانه .

خشخش شيء فى القلوب ، وارتفع مؤشر الهمسات ، ليصبح حديثاً . تسعة أشهر مضت ، تركت سعدة بنت مكاوى ، ضياءها غائماً فى القرية . لم يجلس جسمها الرطب على (التكم) ، يحرك الثيران والساقية . لم يخرج عنفوانها إلى حفل ، لتمتصه الوجوه ، وتجتره الأذهان . لم تنحن على جدول تشرب ، فيرقص ماؤه استحسانا ، وتقوس جذوع القمح قاماتها ، وتسترق النظر .

كانت كخصوبة التربة ، وعطاء النيل ، لاتنهض القرية إلا بهما .

ماتت أمها عن صغر ، فتركت لها عقداً من الذهب ، يزينه صدرها ، ومات أبوها عن كبر ، فترك لها ساقية ، وأرضاً ، وعمة ذابلة التنفس ، تحتضر كل يوم .

تسعة أشهر ، قدر القمر منازل مراراً ، ثم عاد كالعرجون القديم ، لم يجرؤ أحد أن يستل صوته ويسأل .

كانت كأنها سر افتضح أمره ثم طوى . وكانوا يطوقون مصباتها التي كانت تدلكها بالعطر ، ولا يتجهون إلى منبع العطر . حتى حلوم الداية ، أغلقت فضولها ، وكونت توقيتاً معيناً ، وضعته داخل حقيبتها اللامعة ، بين رائحة الدواء ، وأجساد القطن وراحت تنتظر .

وحاول طه مكي استدعاءها في الحلم ، فاستدعى عطراً غامضاً ، طوق الحلم برهة ، ثم ولى ، وذهب ود كارا عدة مرات إلى مصبها في الساقية ، دغدغه العطر الذي لازال ينضح ، ووجد المكان فاغراً أحشاءه ، كأنه يطلب إيضاحاً .

ودعك ود صالح عينيه ، احتلب مائة وجه ، وهو يغني ، فلم تشكل عصارتها بوصة من سعدة . أكل كما إضافياً من ثمر اللبخ ، وأنشد . . .

(يابنية على القليب هجرك كفاية .
أنا المستني في ليلي وضحايا .
أدق طنبوره مجروح الحدايا .
أشد وتر الشعر ، دفق غنايا) .

ودعك عينيه أكثر ، واحتلب من الوجوه ، أكثر من طاقة عينيه ، وظل عنفوانها مفقوداً .

كانت العين الآن ، هي التي تلتقط . وكان الجرح

كاملا ، وخالصاً ، متجسداً أمامها نقياً ، بلا رضوض ، أو كدمات ، أو نسيج يمكن رتقه . حلوم الداية وجهها الآن يأخذ أشياءه من غيرها ، بعد أن نضبت كل أشيائها . وقفت على الباب ، وداست بقدميها على بقايا الصرخة التى كانت لاتزال تتنفس . لم تستطع أن تهش عنها سريان العيون الذى بدأ يتكاثف عليها . كانت أصابعها مقوسة لا تزال ، ويداها ممدودتين إلى الأمام ، وفيهما سر معلن .

أدخل فتاح السمح يده فى جيبه ، أخرج الساعة اليدوية الصغيرة ، طوح بها فى الهواء قليلا ، ثم أفلتها . كأنه يرجم الهواء بصخرة جريحة . ومدت سليم بنت الرحمة يدها إلى صدرها ، انتزعت القرش الأبيض بقوة عجيبة ، ألقته على الأرض ، وداست عليه بقدميها . كان وجهها أكثر لمعانا ، وحلقها منتفخاً ، وفيه حوار ، يحاول جاهداً أن يعود إلى منبعه .

مالت فتحية أم خرز على صاحبها ، لم تثن على وقوفه الشرس فى مواجهة الانجليز ، وأرسلت يدها إلى جبته ، انتزعت الزرارين اللذين أضافتهما . . ثم قالت . . .

كذبت عليك ياود ضبع ، هذا اليوم لايذكرنى بشىء .

ونطق صاحبها لأول مرة ، كان صوته قوياً ، وواضحاً ، ووضع إصبعاً على شفته المتورمة ، وحرك شفته الأخرى . .

أما أنا فيذكرنى بشيء

تشرب الهواء تماماً برائحة غريبة ، اغتصبت جميع جزيئياته ، واحتلت أماكنها ، كانت كأنها رائحة لرغبة فى طور التعفن . تتبعها الباهى بضفتيه ، ومستورة بأنفها ، وتوقفت الضفتان ، والأنف على وجه الإمام ود كروعى ، كان لايزال يقف إلى جوار ود كارا ، أصابعه مبعثرة فى الهواء ، تحاول العثور على لحيته التى زاغت فى ذلك الليل .

أرسل طه مكى عينيه بعيداً ، صفعتا صابر على ظهره ، وهو يغلق دكانه . ثم قربهما ، وأرسلهما إلى الحشد . تسكعتا قليلا ، والتقطتا من كل وجه خيطاً ، تجمعت الخيوط أمامه برهة ، ثم تفتتت .

كان الصباح يزحف واهناً ، وبطيئاً . وانطلق صوت ود صالح قوياً برهة ، ثم أخذ يخفت رويداً . . رويدا ..

البنية الكانت قمر .
تحلا بيها ليالى السمر .

١٩٨٧/٦/٢

● صدر عن مطبوعات الغد ●

اصرار . . . شعر . . كمال عبد الحليم

رسالة العـام الجديد . . رواية . . ابراهيم عبد الحليم

● صدر عن دار الغد ●

مجـلة الغـد . . الاعداد . . الأول والثانى والثالث

● سلسلة كتاب الغـد ●

١ ـ **الكون في الدقائق الثلاث الأولى** . اعداد : د. ممدوح الموصلى
٢ ـ **مسرح ٨٥ . .** دراسة : فؤاد دوارة
٣ ـ **المسلمون والعلم** . للعالم الباكستانى : د. محمد عبد السلام
ترجمـة : د. ممدوح الموصلى
٤ ـ **فؤاد حـداد . .** دراسات في شعر . . وقصائد فى وداعه
٥ ـ **استشهاد فؤاد حـداد . .** شـعـر . . عمر الصاوى
٦ ـ **شرنقـة نرجس . .** قصص أطفال . . عصمت التلمسانى
٧ ـ **الرحلة ـ الجزء الأول** رواية . . فكرى الخولى
٨ ـ **السباحة في قمقم على قاع المحيط . .**
رواية . . هالة البدرى
٩ ـ **مقاطع من أغنية قديمة . .**
قصص قصيرة . . اسامة أنور عكاشة

● تحت الطبـع ●

الشـحاتين . . أوبريت . . عزت عبد الوهاب

كتاب الغـد

يصـدر عن :

دار الغـد للنشر والدعاية والاعلان

٥٦ شارع ٢٦ يوليو – القاهرة

ت : ٧٧٢٧٩٤

● **المدير المسئول :**

محمد كمال محمد عبد الحليم

●

الكتاب العاشر

الطبعة الأولى

شعبان ١٤٠٨هـ – ابريل ١٩٨٨

AL-CHAD Publishing House

56, 26 th July st. Cairo, Egypt

Tel. : 772794

●

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٨/٣٦٢٦

مطابع الدجوى - القاهرة